

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

العدد: ١٧٠ ذو القعدة ١٤٣٦هـ السنة الخامسة والثلاثون

حوار حول التراث والحداثة

أ.د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

نعمان عبد الرزاق السامرائي

* من مواليد (العراق).
* دكتوراه في العلوم الإسلامية.
* مهتم ببحوث الحضارة.
* اشتغل بالتدريس الجامعي في عدد من البلاد الإسلامية.
* عضو مؤسس لجمعية الكتاب والمؤلفين ببغداد.
* عضو مؤسس للمعهد العربي بمدينة (مانشستر).
* ساهم بتقويمٍ للمدارس العربية والإسلامية في إفريقيا.
* له مساهمات ثقافية في عدد من المجلات والصحف والإذاعات العربية والإسلامية.
* له العديد من الكتب المنشورة، منها:
  - اليهود والتحالف مع الأقوياء.
  - نحن والحضارة والشهود (جزءان).
  - الفكر العربي والفكر الاستشراقي بين د. محمد أركون ود. إدوارد سعيد.
  - مباحث في الثقافة الإسلامية.
  - موسوعة: «التكفير، قديمًا وحديثًا».



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. جهد علمي مقدور وعمل ثقافي متميز، يتمحور حول ما تشهده الساحة الثقافية من اشتباك تزيد حدته، يوماً بعد يوم، بين التراث وأهله وبين وكلاء الغرب وعشاق العلمنة والحداثة، الذين يريدون دمج الأمة المسلمة في الغرب وقيمه وثقافته وتقاليده مع قطع النظر عن قربها أو بعدها عن الدين، ويناصبون (التراث) عداءً شديداً، ويريدون حرقه والتخلص منه، اعتقاداً بأنه السبب في تأخرنا، ويتناسون أن الفضل في تقدمنا كان للتراث الإسلامي.

لقد خرجنا من الجزيرة (نحمل الإسلام وحضارته) وليس لدينا إلا عقيدتنا وجهودنا؛ ولسنا على استعداد (لحرق هذا التراث أو تجاهله) ولا قبول كل ما لدى الغرب من تصور ديني فاسد وخرافي، لكننا لا نرفض علوم الغرب ومعارفهم، ولن نكون في هذا أكثر مما فعل الغرب، فقد رفض الإسلام عقيدة وشريعة، وقَبل الحضارة الإسلامية وخصوصاً (العلم التجريبي)، ومن حقنا وحق غيرنا أن يرفض ويقبل من الغرب وثقافته وحضارته.

والكتاب في قسمين: الأول للحوار حول التراث، والثاني لدراسة الموقف من التراث والحداثة، وهو في مجمله نقد للحداثة والعلمانية، في المجتمعات العربية الإسلامية؛ ويتميز بأنه يستند في ذلك إلى أقوال مجموعة من غير المتهمين فيما يقولون حول الحداثة والعلمانية، من المفكرين الحداثيين والعلمانيين والمحسوبين على الفكر العلماني، ويجمع الكثير من النصوص القيمة، من كتبهم وحواراتهم مع الصحف والمجلات العربية.

ويخلص إلى أن المعركة حامية الوطيس وداخلة في قول الحق: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠)، فالتدافع والتصارع عمل إنساني، ولن ينقطع حتى تقوم الساعة.

موقعنا على الإنترنت : www.sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني : E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

حوار حول
التراث والحداثة

أ.د. نعمان عبد الرزاق السامرائي

الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤٣٦هـ

آب (أغسطس) – أيلول (سبتمبر) ٢٠١٥م

نعمان عبد الرزاق السامرائي.

حوار حول التراث والحداثة.

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٥م.

١٨٤ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٧٠)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٥ / ٢٠١٥

الرقم الدولي (ردمك): ١ - ٩ - ١٢٠ - ٩٩٢٧ - ٩٧٨

أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa

www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يقول تعالى:

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ ... ﴾

(الحج: ٤٠)

تقديم

الحمـــد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى الهـادي الأمـين، نبينـا محمـــد، وعلـى آلـه وصـحبـه ومـن سـار علـى نهـجـه واتبـع سنته إلى يوم الدين.

وبعد:

فهـذا «**كتاب الأمة**» السبعون بعد المائة: «**حوار حول التراث والحداثة**»، للأستاذ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، في سلسلة «**كتاب الأمة**»، الذي يصدر عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية بدولـة قطـر، مسـاهمة في إعـادة الشخصـية المسـلمة، في ضـوء هـدايات الـوحي، ووفـق قيمـه المعصـومة، واستهداءً بسلوك الرسول القدوة ﷺ واقتفاءً بحياة الأصحاب في القرون المشهود لها بالخيرية والعدالة، ومواجهة صور الغلو في الدين، والانحراف بقيمه، والاعوجـاج بفهمه، والتشويه المتعمد وغير المتعمد لتنزيله على الواقع بفقه قليل وعقل عليل.

وتجيء هذه الدراسة لبيان أن «الثقافة العربية في حاجة إلى إعادة تأسيس، بحيث يجعل قضاياها تلتئم ضمن (رؤية نقدية) تنزع عنها (طابعها الإشكالي)، الطابع الذي لا يسمح بالتفكير في أية قضية منها إلا من خلال منظومتين مرجعيتين مختلفتين.. إن الوعي بأبعاد هذه المسألة سيجعل من (دعوة الحداثة)، التي تنشدها المجتمعات العربية، عملية لتأكيد حضور واع في الحضارة المعاصرة، وليست دعوة (للاستلاب أو الانكفاء على الذات)، نحن لا نرى بأساً في ذلك، فقد قام أجدادنا بتأسيس علومهم عندما اصطدموا بالنموذج اليوناني، فأعادوا تقنين (اللغة والشريعة والأدب ومختلف المعارف)، التي بحوزتهم، وفق الشروط، التي تحفظ لهم كيانهم وهويتهم، وعلينا أن نقوم بالعمل نفسه، إذا أردنا أن نحفظ ذاتنا من زحف النموذج الحضاري الغربي، ولكن مع الفارق، الذي يراعي (خصوصية) الظرف، الذي يفصلنا عنهم، إننا نعيش اليوم مرحلة تراجع حضاري، بخلاف ما كان عليه أجدادنا من مدّ وانطلاق».

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

المقدمة

تشهد ساحتنا الثقافية (اشتباكاً) تزيد حدته بين التراث وأهله وبين وكلاء الغرب وعشاق العلمنة والحداثة.

ومنذ الحرب العالمية الأولى يتولى الحكم في كثير من البلاد العربية والإسلامية نفر يعشق الغرب، ويريد أن يدمجنا في الغرب وقيمه وثقافته وتقاليده مع قطع النظر عن قربها وبعدها عن الدين، ويناصب (التراث) عداءً شديداً، ويريد حرقه والتخلص منه.. والإنسان يفهم إذا كان الغرب يريد ذلك، فهو يختزن ثقافة تذكره بأن المسلمين اشتبكوا معه في أكثر من (٢٧٠٠) معركة كبرى، واحتلوا أسبانيا وأجزاء كبيرة من شرق أوروبا، وإذا كنا نسينا ذلك التاريخ، فالغرب يتذكره، وهناك من يذكّره به، كما هناك إسرائيل والمتعصبون من رجال الدين، وتجار الاستشراق، يذكرون بذلك ليل نهار، ولدينا (مجانين) يساهمون في إشعال النيران، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

ويتجاهلون درراً في ثقافتنا كقول الحق: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩).

وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّهُمْ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ**»[1]، ويقول القاضي عياض: «لا يجوز قتل كلب ولا خنزير غير مؤذ، فكيف يجوز قتل مسلم؟؟»

ولقد وجدت مفكراً (د. رضوان زيادة) يتحدث عن تلقينا البائس فيقول: إن المنطقة العربية، غير قادرة على (الإسهام) ويقتصر دورها على (التلقي السلبي)، وغالباً ما يكون (سيئاً بائساً)، فنحن نقرأ الإشكاليات في غير سياقها، كما حصل في مفاهيم العلمانية والاشتراكية والحداثة وما بعدها.

أما الباحث المفكر د. عبد الإله بلقزيز فيتحدث عن (النموذج العلماني)، الذي عرفته الدول العربية، فقد كانت زراعته في (حقل نابذ) فكان سبباً وراء (تشوهات خطيرة) في الدولة، كما كان مصدراً لمشاكل وأزمات جعلت استقرار الوطن ووحدته في (امتحان عسير).

ويسجل ملاحظة دقيقة مفادها: أن البلاد العربية والإسلامية (الأكثر علمانية) ... هذه البلاد كلها قد أفرزت (أشد الحركات السياسية والدينية) معاداة للعلمانية، وأكثرها دفاعاً عن فكرة إعادة التوحيد بين السياسي والديني.

لقد أخفقت العلمانية العربية (الكسيحة في تحقيق قضيتها، التي من أجلها تبلورت ولم يكن إخفاقها (الشاحب الباهت) يتجلى في تأثيرها في النظام الاجتماعي، وفي علاقة هذا بالنظام السياسي فحسب، وإنما كان مظهره الأوضح في أن العلمانية (استثارت) أوسع معارضة ومقاومة شعبية وثقافية ضدها، لدرجة

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن أنس بن مالك ﷺ.

أفقدت الدولة (توازنها) وأطاحت بهيبتها، وليس من مبرر للاعتقاد، بأن ضعف (الدولة العلمانية) في مواجهة (الاعتراض الإسلامي)، المتزايد عليها يمكن تداركه (بحل أمني) بحيث يفرض هيبة القانون والسلطة، فقد جربت ذلك، ولكن دون جدوى، فقد أصبح الاعتراض على (شرعية القانون نفسه)، ولن يكون من المنطق أن تحقق (شرعيتها سلماً)، وهي المالكة لأجهزة التربية والتعليم والإعلام، فأي شرعية إذن تستحق أن تكون (الحرب الأهلية) طريقها؟

لقد ولدت العلمانية العربية في امتداد عملية (اغتصاب سياسي ثقافي) للتاريخ الخاص، وفي سياق عملية (إلحاق عنيف وقسري) للنظام السياسي وفق نموذج (مرجعي)، يقع خارج البيئة، وعليه فقد (حوصرت العلمانية) بخطيئة الولادة، وليس من الحكمة (انتظار شرعيتها)، فذلك خارج مدار العقل ومطالب الأخلاق[1].

هذا الهجوم الصاعق يأتي من حداثي –غير متهم– فما رأي رفاق الدرب؟

د. حسن حنفي يتحدث عن الإبداع فيقول: لا إبداع ذاتي دون تحرر من هيمنة الآخر، ولا إبداع أصيل دون عودة إلى (الذات الخاصة) بعد القضاء على اغترابها الآخر، وتتجاوز هذه (الأصالة) مستوى الفنون الشعبية والمظاهر الخارجية، إلى مستوى القوالب الذهنية والتصورات العامة[2].

ونبقى مع د. حسن حيث يسجل التدافع بين ثقافتين فيقول: لقد أصبحت الثقافة الغربية في ثقافتنا المعاصرة ظاهرة تدعو للانتباه، فالعالم هو من

---

(١) أسئلة الفكر العربي المعاصر (دار الحوار، طبعة ٢٠٠٠م) ص١٢٠.

(٢) في علم الاستغراب، طبعة ١٩٩١م، ص٥٢.

يعرف (التراث الغربي)، والعلـم هـو المعـلـومـات الوافـدة علينـا مـن الغرب، ولا يستطيع إنسـان أن يكـون (مجـدداً) إلا إذا تعلـم الوسـائل الغربيـة، لقـد صـار العلـم نقـلاً، وصـار العـالم مترجماً، كمـا صـار المفكـر عارضـاً لبضـاعة الغير، وقـد وجـدت طبقـة (هشـة) مـن الأفكـار والنظريـات (طـائرة) فـوق الواقـع، لا هـي مستمدة من (الموروث القديم) ولا هي نابعة من الواقع أو تنظير له.

تتضارب المعلومات وتتعارض النظريات، فينفي بعضها بعضاً، فيختار الباحث أمام هذا التعدد في الأفكار والمذاهب المنتشرة فوق الواقع (المجتث) من الجذور والمنتزع من الواقع، فيحتار كيف يختار، وما هي مقاييس الاختيار، خصوصاً وقد زاد الكم، بدرجة رهيبة، ومع ذلك ما زالت الفكرة الأساسية غائبة[1].

إن الثقافـة الغربيـة تصـارع، وقـد كسـبت (محـاربين مرتزقـة) هـم أكثـر حمـاساً لثقافة الغرب، ذلك أن (الدعي) يُظهر الحماس والتعصب بحيث يتجاوز الغربي في حماسه وتطلعاته!

عبـد المجيـد بوقربـة، لـه كتـاب عنوانـه: «الحداثـة والـتراث» صـدر عـن دار الطليعة، يقول في المقدمة[2]: لو ألقينا نظرة على نوع القضايا، التي تعج بها الساحة الثقافيـة العربيـة - في الوقـت الـراهن- فـإن أول انطبـاع لـدينا ينصـب عـلى الصيغة (الازدواجيـة)، الـتي تشـد هـذه القضـايا، فـلا يخلـو منهـا مجـال مـن مجـالات البحـث العلمـي والثقـافي عنـدنا، فعلـى كافـة المستويات الفكريـة والأدبيـة والألسـنية هنـاك

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢) الحداثة والتراث، طبعة ١٩٩٣م، ص٥ .

(تمزق وثنائية) تلازم أية مسألة من المسائل، التي تزدحم بها هذه المستويات، حتى يخيل للناظر أن الأمر يتعلق باختلاف الأطر المرجعية، تلك التي ينظر من خلالها المثقف العربي إلى القضايا والإشكالات الفكرية، غير أن الأمر ليس كذلك دائماً، فالكثير من دعاة الحداثة، من يصدر عن رؤية (رجعية) في حين يبدو من يصنف في (خانة الماضي) أكثر امتلاكاً لناصية (الحداثة)، فعلام يدل هذا إذن؟

إنه يدل على أن الثقافة العربية في حاجة إلى إعادة تأسيس، بحيث يجعل قضاياها تلتئم ضمن (رؤية نقدية) تنزع عنها (طابعها الإشكالي)، الطابع الذي لا يسمح بالتفكير في أية قضية منها إلا من خلال منظومتين مرجعيتين مختلفتين.. إن الوعي بأبعاد هذه المسألة سيجعل من (دعوة الحداثة)، التي تنشدها المجتمعات العربية، عملية لتأكيد حضور واع في الحضارة المعاصرة، وليست دعوة (للاستلاب أو الانكفاء على الذات)، نحن لا نرى بأساً في ذلك، فقد قام أجدادنا بتأسيس علومهم عندما اصطدموا بالنموذج اليوناني، فأعادوا تقنين (اللغة والشريعة والأدب ومختلف المعارف)، التي بحوزتهم، وفق الشروط، التي تحفظ لهم كيانهم وهويتهم، وعلينا أن نقوم بالعمل نفسه، إذا أردنا أن نحفظ ذاتنا من زحف النموذج الحضاري الغربي، ولكن مع الفارق، الذي يراعي (خصوصية) الظرف، الذي يفصلنا عنهم، إننا نعيش اليوم مرحلة تراجع حضاري، بخلاف ما كان عليه أجدادنا من مدّ وانطلاق.

لنتعرف على كيفية ممارسة أجدادنا بناء معارفهم، وهل بإمكاننا أن نستعيد، مرة ثانية تأسيس معارفنا.

من المعلوم أن الترجمة للمعارف اليونانية ابتدأت على أيدي غير المسلمين، من النصارى واليهود، وفي مرحلة لاحقة وجد المسلمون مخالفة لما يؤمنون به خصوصاً في الفلسفة والمنطق، أما الآداب فلم ينقل منها شيء؛ لأنها وثنية، تؤمن بتعدد الآلهة وتقاتلها، لذا جاء الرد الإسلامي من (علم الكلام)، ويلاحظ أن الفيلسوف الفارابي، ومثله ابن رشد، حاول الجمع بين الفلسفة والعلوم الإسلامية، فكتب الفارابي كتابه: (الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون وأرسطو)، وكتب ابن رشد: (فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال)، والهدف (تصالحي) بين الإسلام والفلسفة اليونانية، على حين قام الغزالي بدراسة الفلسفة فكتب: (تهافت الفلاسفة)، أما العلمانيون عندنا فهم عشاقٌ للغرب، يعادون التراث، ويعتقدون أنه السبب في تأخرنا، ويتناسون أن الفضل في تقدمنا كان للتراث الإسلامي، وقد خرجنا من الجزيرة (نحمل الإسلام وحضارته) وليس لدينا إلا عقيدتنا وجهودنا، ولسنا على استعداد (لحرق هذا التراث أو تجاهله) ولا قبول كل ما لدى الغرب من تصور ديني فاسد وخرافي، لكننا لا نرفض علوم الغرب ومعارفهم، ولن نكون في هذا أكثر مما فعل الغرب، فقد رفض الإسلام عقيدة وشريعة، وقَبِل الحضارة الإسلامية وخصوصاً (العلم التجريبي)، لقد فتحنا كافة مدارسنا في الأندلس ولكل طالب علم، مع قطع النظر لما يعتقد، وهذه شهادة للمفكر والباحث «ديورنت»، يقول فيها: كان المسيحيون يقدمون بكامل حرياتهم، وهم آمنون، من جميع أوروبا، قاصدين قرطبة أو طليطلة أو أشبيليا، طلباً للعلم أو زائرين، وقد شكا أحد المسيحيين من تسامح المسلمين فقال: إن إخواني يعجبون بقصائد العرب وقصصهم وهم لا يدرسون مؤلفات

(الفقهاء والفلاسفة) ليردوا عليها ويكذبوها، بل يستعملون الأساليب العربية الأنيقة، وا حسرتاه، إن شبابنا، الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية، لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم، فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب، ويملؤون بها مكتباتهم، ينفقون في سبيل جمعها الأموال الطائلة، وأينما حلوا فهم يقضون بمدح علوم العرب[1].

ولأن بقاء الحال من المحال، والدنيا دول، فلا عجب أن يتخلف المتقدم ويتقدم المتخلف، وكما رفض الغرب الإسلام، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة، فمن حقنا وحق غيرنا أن يرفض ويقبل من الغرب وثقافته وحضارته... إن بعض أبنائنا يعيش بجسمه معنا، أما عقله وقلبه فيطوف حول أصنام في لندن وواشنطن وباريس، وهو يدعونا ليل نهار لنشاركه الطواف، فهل من الواجب علينا أن نجيب ونستجيب؟ وهل عرف العالم ثقافة واحدة، وحضارة واحدة، تحكمه وتتحكم فيه، رضي الناس أم سخطوا، عشقوا أم كرهوا، رغبوا أم نفروا؟

وأختم هذه المقدمة، التي طالت، بنقل نص جيد للمرحومة د. منى أبو الفضل، جاء تحت عنوان: (إطلالة منهاجية على مصادر التراث السياسي)، تحدثت عن (التراث) وتعدد الأسئلة[2]، فقالت: يسألونك عن التراث، قل هو الثمين، لا تدرك قيمته إلا بفقده وتفقده، وهو الزاد، الذي لا تحصل (الحداثة) إلا به، ويسألونك عن الحداثة، قل هي الفتنة، التي لا يُرد بأسها، ولا ترشد إلى هداها، بغير التراث، وهكذا يدور السجال، وتحتد النبرات، في لحمة الخطاب

---

(١) ديورنت، قصة الحضارة، ط١، ٢٩٧/١٣.

(٢) نصر محمد عارف، في مصادر التراث السياسي، ط١، ١٤١٥هـ، ص١٧.

المعاصر، ليفصح عن بنية من متلازمات، ونسيج من المتقابلات، هي في الحقيقة مفتاح لخارطة المتغيرات الفكرية والاجتماعية، التي تشكل صبغة المعاصرة، في منطقتنا الحضارية اليوم، وليست الخطورة بتعدد الاجتهادات في مجال التراث، أو اختلاف الآراء والمداخل، فكل ذلك ليكون زاداً لإثراء التراث، وأداة في بناء صرح الفكر الحضاري الجديد للأمة، وشاهداً على استعادة فاعليتها، وعاملاً لصالح نهضتها وبنيتها الفكرية، لكن الخطورة في بنية وواقع ومنطلقات (خطاب التراث)، وهذه مشكلة ترتبط أساساً بواقع (الصراع الحضاري المعاصر)، وبموقع أمة: الكتاب «والشهود الحضاري».

لقد جمعت الكثير من النصوص، والمعركة مفروضة علينا، ومن يطلع على ما يصدر عن بعض المؤسسات البحثية الغربية سيجد تحيات لأشخاص ومؤسسات يعتبرون (حلفاء الغرب) بل يجد (تلقيناً) لشبهات تتعلق بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وقد جعلت البحث في قسمين: واحد للحوار حول التراث، والثاني لدراسة الموقف من التراث والحداثة.

وأعتقد أن المعركة حامية الوطيس وداخلة في قول الحق: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠)، فالتدافع والتصارع عمل إنساني، ولن ينقطع حتى تقوم الساعة.

والله الموفق.

القسم الأول
حوار حول التراث

وقفة مع التراث

يقول المفكر المغربي سعيد بنسعيد[1]: نحن نعيش تراثنا، نعانقه ونتعامل معه، في كل ساعات يومنا، في طرائق تفكيرنا وحديثنا، في التناقضات الكثيرة المتصلة بحياتنا، في كل ذلك ما ينبهنا إلى ذلك، وما يذكرنا به.

إن التراث بالنسبة للمثقفين العرب هو هذا الضيف، بل هو هذا الساكن، الذي لا ينوي مفارقة المسكن أبداً، وحيثما نولي وجوهنا فهو جارنا الملازم لنا كظلنا.

إن إلغاء التراث بالسكوت عنه، أو القول المجاني: «فلنلق بالتراث إلى البحر»، هذا الشعار لا يقدمنا أبداً؛ لا تنوير ولا تحديث ممكن بدون ترتيب لهذه العلاقة مع التراث، أي بالنقل إلى مستوى الوعي، هذه هي المسألة الجوهرية فعلاً[2].

سؤال: إذا كان التراث على هذه الدرجة من الأهمية فلماذا الاختلاف حوله؟

منا من يعتقد أن التراث هو روح، وهو الحافظ للهوية، ومنا من يعتقد أن التراث من الماضي، الذي عفا عليه الزمن، ولن تنهض الأمة إلا إذا تحررت من التراث، وأهالت عليه التراب؟

---

(١) الأيديولوجيا والحداثة، ط١، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، نفسه.

جواب: لا بد من الاعتراف بوجود خلافات في الأمة، بعضها قديم، وبعضها حديث، ولعل من الحديث الخلاف حول التراث وقيمته، والموقف منه.

وأريد أن أبقى مع المفكر المغربي بنسعيد، فهو يقول[1]: إذا كانت ثقافات الشعوب تحمل في جوفها، كلاً أو بعضاً، من الإرث الثقافي المتكون لديها عبر التاريخ الثقافي، فإن الثقافة العربية المعاصرة تختلف عنها في كونها ليست بقايا من ثقافة الماضي، بل هي تمام هذه الثقافة وكلّيتها، وهي من القوة والعمق بحيث إن صروف الدهر وتقلبات الأحوال لم تنل منها.

سؤال: إذا كان للتراث هذه القيمة، ليس عندنا فقط، فلماذا لا يكون نوع إجماع حوله؟

جواب: يبدو أن عصر الإجماعات راح يبتعد، ليس عنا فقط، بل عن كثير جداً من شعوب العالم.

وبالمناسبة فثمة إجماعان:

الأول: ثقافي، وهذا الإجماع توفره العقيدة الواحدة، فالناس يختلفون في الفروع عادة، ويظلون أمة واحدة، فإذا اختلفوا في الأصول صاروا أمماً عدة.

وقد وفر الإسلام، كعقيدة، وحدة ثقافية، تجاوزت ألف عام، رغم وجود المذاهب الفقهية المتعددة، وبإمكانه أن يوفر الإجماع الثقافي حتى صار الالتزام به حياً قوياً.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٤ .

الثاني: الإجماع السياسي: وهذا توفره أمور مثل وجود أهداف كبيرة واضحة للأمة، ووجود قيادة قوية مخلصة ذات صفات عالية، وهو ما يطلق عليه رجال علم الاجتماع: شخصية (كارزمية)، فالأمة تتوحد في الشدائد والحروب وتسير خلف قيادتها متى وثقت بها.

ويدور في ذهني سؤال آخر.

سؤال: الذي نعرفه ونسمعه من علماء الفقه والأصول هو إجماع واحد، بأن يتفق علماء الأمة حول قضية من القضايا وحكمٍ من الأحكام، فمن أين أتيت بالإجماع السياسي؟

جواب: نعم، الإجماع معروف، وهو ليس ابن اليوم، ولكن حديث العلماء عنه، هل يمنعنا من الحديث عن إجماع آخر؟

إن هذا المنع يحتاج إلى دليل.

وبالمناسبة، فالممنوع أساساً هو الابتداع في العبادات، أما في أمور الحضارة فمطلوب ذلك، وعلماؤنا حين يتحدثون عن فروض الكفاية يقولون: إذا وُجد في العالم علم نافع أو صناعة أو فن مفيد، فعلى أفراد المسلمين تعلم ذلك وإلا أثموا جميعاً، فإذا تعلمه البعض سقط الإثم عن الأمة.. وإذا كنا نتحدث عن إجماع ثقافي وآخر سياسي فقد نتحدث غداً عن إجماع اقتصادي؛ وأقرّب المسألة فأقول: لو جرى استفتاء الأمة كلها حول مقاطعة إسرائيل سياسياً واقتصادياً وثقافياً وسياحياً وشاركت الأمة بالتصويت، فكم ستكون نسبة المؤيدين لذلك، وما نسبة المعارضين؟

والخلاصة: أعتقد أننا مأمورون بعدم الابتداع في العبادة، وبالمثل مأمورون بالإبداع في الحضارة، ولكن الذي حصل انقلاب، فرُحنا نبتدع في العبادة، ونقلد في الحضارة، فلم تسلم لنا العبادة، ولا أنجزنا شيئاً مفيداً في الحضارة.

سؤال: عرض جيد يصعب رفضه، ومنطق يصعب تجاهله، والسؤال: هل نحن وحدنا نملك تراثاً أم تشاركنا أمم الأرض، وما هو موقفها من التراث؟

جواب: سؤال في صميم الموضوع يصعب تجاهله والقفز عليه، ويمكن القول: إن من يتابع نهوض الأمم - قديماً وحديثاً- يجد قاسماً مشتركاً بينها، هو العودة أولاً للتراث، واتخاذه نقطة ارتكاز وانطلاق.

يقول د. برهان غليون، أستاذ علم اجتماع في جامعة السوربون[1]: إن الثقافة الغربية الحديثة، بقدر مشاركتها الفعالة في الحضارة أكثر فعالية من كل الثقافات الأخرى ارتباطاً بالتراث، وإحياءً وتمثلاً له، وليس هناك من يطرح مسألة التراث والمعاصرة.

ويتحدث د. محمد خاتمي[2] عن مشروع للنهوض يقوم على نقد وتقويم الحداثة والتراث معاً مرتكزين فيه إلى ماضينا، الذي أنتج حضارة، مع الإفادة من معطيات الحضارة الحديثة لا سيما ونحن نمتلك في التاريخ سابقة حضارية، تركت بصماتها على مصير العالم والإنسان.

---

(١) اغتيال العقل، ط٦، ص ١٥٩.

(٢) مطالعات في الدين والإسلام، ص٧٩.

وأخيراً، إن لدينا تراثاً هو رصيد ثمين، ليس من العقل أن نحرقه بجرة قلم.

في تراثنا قيم رائعة ووقائع تستند إلى هذه القيم، من ذلك أن (المعروف) شيء أكبر من أن يباع ويشترى، فهو أثمن من المال وأكبر من الجاه، يذكر ابن كثير واقعة تاريخية تعود للعهد الأموي[1] فيقول:

«كَانَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ - أي مليون-، وَيَقْضِي لَهُ مَعَهَا مِائَةَ حَاجَةٍ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ عَامًا، فَأَعْطَاهُ الْمَالَ، وَقَضَى لَهُ الْحَاجَاتِ، وَبَقِيَتْ مِنْهَا حَاجَةٌ وَاحِدَةٌ، فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ قَدِمَ «أَصْبَهْبَذُ سِجِسْتَانَ» يَطْلُبُ مِنْ مُعَاوِيَةَ أَنْ يُمَلِّكَهُ تِلْكَ الْبِلَادَ، وَوَعَدَ مَنْ قَضَى لَهُ هَذِهِ الْحَاجَةَ مِنْ مَالِهِ أَلْفَ أَلْفٍ، فَطَافَ عَلَى رُءُوسِ الْأُمَرَاءِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأُمَرَاءِ الْعِرَاقِ، مِمَّنْ قَدِمَ مَعَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، فَكُلُّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ: عَلَيْكَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ. فَقَصَدَهُ الدِّهْقَانُ، فَكَلَّمَ فِيهِ ابْنُ جَعْفَرٍ مُعَاوِيَةَ، فَقَضَى حَاجَتَهُ تَكْمِلَةَ الْمِائَةِ حَاجَةٍ، وَأَمَرَ الْكَاتِبَ فَكَتَبَ لَهُ عَهْدَهُ، وَخَرَجَ بِهِ ابْنُ جَعْفَرٍ إِلَى الدِّهْقَانِ، فَسَجَدَ لَهُ، وَحَمَلَ إِلَيْهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ جَعْفَرٍ: اسْجُدْ لِلَّهِ، وَاحْمِلْ مَالَكَ إِلَى مَنْزِلِكَ، فَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نُتْبِعُ الْمَعْرُوفَ بِالْمَنِّ[2]. فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَأَنْ يَكُونَ يَزِيدُ - أي ابن معاوية- قَالَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ خَرَاجِ الْعِرَاقِ، أَبَتْ بَنُو هَاشِمٍ إِلَّا كَرَمًا».

عبد الله بن جعفر في اصطلاح اليوم.. يتوسط.. لرجل لا يعرفه، فإذا أنجز له ما يريد سجد له، تحية وإكباراً، فيعلمه أن السجود لله وحده،

---

(١) البداية والنهاية، ٨/١٤٩.

(٢) وفي رواية: «إنا أهل بيت لا نبيع المعروف».

فهو الإله المعبود، ولا يصح السجود لأحد غيره. يعرض «الدهقان» مليون درهم نظير هذه العملية، وكان يسع عبد الله أخذها وتفريقها هنا وهناك، ولن يلومه أحد، خصوصاً أنه لم يشترط ذلك ابتداء، ولكنها القيم العالية فوق المال، فكيف تباع، ولو بمليون؟!

القضية الأخرى، وصول الواقعة إلى معاوية ﷺ، ورد فعله عليها، فهو يتمنى أن تكون حصلت من قِبل ولده .. يزيد.. ولو حصلت فهي في نظر معاوية ﷺ أكبر من خراج العراق، وكان إذ ذاك أكبر خراج، فقد قارب عشرة ملايين درهم أو يزيد.

سؤال: هذه معان كبيرة، فهل يمكن أن نبعثها من جديد؟

جواب: هذه القضايا وأمثالها حين تعرض مجدداً وتنشر يتعرف الناس عليها، وهنا يتم زرعها مجدداً، والأمة بحاجة إلى مثل هذه القيم الكبيرة كي تقف في وجه الشهية الكبيرة لجمع المال، مع قطع النظر عن مصدره.

قضية أخرى مماثلة، فقد أراد «معاوية» ﷺ أن يعزي عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، بوفاة الحسين بن علي، رضي الله عنهما، فكان مما قال[1]: «لا يسوؤك الله ولا يحزنك في الحسن بن علي»، فرد ابن عباس، رضي الله عنهما، قائلاً: «لا يحزنني الله، ولا يسوءني ما أبقى الله أمير المؤمنين»، فاستحسن الجواب، بل هزه هزاً، فقدم له ألف ألف درهم وعروضاً وأشياء، ثم قال له: خذها فقسمها في أهلك.

---

(١) المرجع السابق، ٨/١٥٠.

تعزية وجواب عليها بمليون ريال، إنه التقدير العالي للكلام الجيد، والمنطق العذب، فهل يوجد مثل هذا في الحضارة المادية، التي قال عنها الفيلسوف نتشة: اجمع اجمع، ذلك هو الشريعة والقانون. أي اجمع المال فقد صار المال هو الشريعة وهو القانون، بل كل شيء.

قضية أخرى: لكل علم أهله، ولكل فن أصحابه، وهناك متطفلون، قديماً وحديثاً، والسؤال: كيف نميز الأصيل من المتطفل؟ كيف نميز بين المخلص والمتلاعب؟

ومن الساحة، التي يُخشى عليها ساحة العلم الشرعي، ينقل لنا «الذهبي» في موسوعته الرائعة «سير أعلام النبلاء»[1]: أن ابن يونس سمع الإمام «مالكاً» يقول: إنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَهُ، لقد أدركت في المسجد –يقصد المسجد النبوي– سبعين ممن يقول: قال فلان قال رسول الله، عليه السلام، وأن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أميناً، فما أخذتُ منهم شيئاً؛ لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ويقدم علينا «الزهري» وهو شاب، فنزدحم على بابه.

سؤال: لماذا هذا الموقف ما دام لا يطعن في أمانة الناس، فلماذا لا يأخذ عنهم ما يروونه عن رسول الله، عليه السلام؟

جواب: هذا فقه جيد، وتصنيف للناس دون طعن بهم، فكل صنف من العلوم، شرعية وغير شرعية، له أهله المحققون، وله زعانف وأدعياء، والعلم

(١) سير أعلام النبلاء، ٣٤٣/٥.

الشرعي لتعلقه بالحلال والحرام، وصحة وسلامة الاعتقاد، ينبغي أن لا يؤخذ إلا من أهله، تقديراً للإخلاص أولاً، ومعرفة جيدة بحامل العلم، تنقل لنا كتب التراث أن رجلاً جاء "المأمون" وقدم نفسه بأنه من رجال الحديث، فراح المأمون يسأله عن هذا العلم باباً باباً، ولما لم يجد عنده ما يسره قال: أعطوه ثلاثة دراهم، ثم قال: يقرأ أحدكم الحديث أياماً معدودة، ثم يقول إنه من رجال الحديث.

منهج جيد: نحترم التخصص، دون أن نطعن بإخلاص الناس، نعمل على الفرز بين الأصيل والمتطفل، بين المحقق ومن يعرف من العلم نتفاً، بين من يعطي العلم حقه ومن يتاجر بما تعلَّم.

وعندما تكثر البضاعة المغشوشة في السوق، فعلى المشتري أن يدقق جيداً وإلا ندم، العلم ليس حكراً على أحد، ولا هو ساحة مغلقة، لكنه أيضاً ليس ساحة مستباحة كالسياسة، يتحدث فيها العالم والجاهل والمخلص والمنافق.

حوار مع د. برهان غليون

التراث رأسمال ورثناه، بالإمكان الإفادة منه وتنميته، كما بالإمكان تركه وإهماله، والبحث عن بديل له.

وقد وجدت صحفية عربية[1] حاورت د. برهان غليون –الأستاذ في جامعة السوربون بفرنسا– فسألته: كيف تنظر إلى قضية التراث؟

وقد جاءت إجابته مطولة آخذ هنا جزءاً منها.

يرى د. غليون أن التراث هو الرأسمال الخاص، الذي تملكه الجماعة والذي تركه الأجداد للتعامل مع التاريخ، وهذا التراث قد يكون جيداً صافياً، أو بحاجة إلى تصفية، إلا أنه رأسمال جاهز، لم يتعب فيه جيلنا، ولا هو مضطر لدفنه والتخلص منه، وقدرة الجماعة وقوتها تتمثل في القدرة على إدارة هذا الرأسمال، أو هذا التراث المادي والمعنوي، قد أدَّعي أن ما ورّثني والدي بالعملة «المحلية» لا يعادل ما ورثه صديق لي بالعملة الصعبة، لكن مصيرنا، هو وأنا، لا يرتبط بهذا الإرث وحده، بل بقدرتنا على استثماره، كما قد يهدر صديقي إرثه من العملة الصعبة، وينمو مالي ليصبح كثيراً.

---

(١) حوارات من عصر الحرب الأهلية، ط١، ص ٢٦٠.

ليس من الواجب على أجدادنا أن يورثونا رأس المال، الذي نريده، كما ليس من حقنا أن نهدره كما نشاء، لقد أورثونا ما استطاعوا في ظروفهم التاريخية، ومن واجبنا نحن أن نعيد فيه النظر، لنضاعف الرصيد العامل فيه، ونخفف جهد الإمكان الرصيد السلبي، هكذا التاريخ، كل جماعة تحمل تاريخها، وهي تتعامل برصيدها ورأسمالها، لقد أورثنا الأجداد لغة وآداباً وأفكاراً، كما أورثونا أرضاً ربما تعدل قارات، وموقعاً من أهم المواقع الاستراتيجية.

ولكل إرث مشاكله، فالموقع الجيد مطلوب الدفاع عنه بشكل أقوى، والأدب الغني يستدعي رفع الهمة في الإبداع، فأي أمة عندها مثل أدبنا العربي، لا تقبل بسهولة تكريس كل من هب ودب ليكون أديباً كبيراً.

باختصار، علينا أن نطور الإيجابي من هذا التراث، ونهذب السلبي، ونحل ما فيه من مشاكل، فكما لا نستطيع أن نغير موقعنا الجغرافي، أو نستبدل وطننا الصحراوي بغيره، بل علينا حمايته وتطويع الصحراء للإفادة منها، فإن عشنا نبكي هذا الإرث الصحراوي، فلن نغير شيئاً، ولن نحصل على وطن آخر، وقد نفقد الموجود المطلوب؛ إذن أن نحول الصحراء إلى مستودع لطاقة بديلة، ولأنواع من الزراعة الجديدة المناسبة، لكن من لا يرى وطنه إلا بعين غريبة، ومن يتربى على كرهه، فلن يستطيع أن يفهمه أولاً، ولن يتحمس لتثميره وتطويره، هكذا أفهم إشكالية التراث.

فإذا كان قسم من مثقفينا يشعر بأن التراث يشكل عبئاً علينا، وعقبة أمام تطورنا، فسبب ذلك أنه أقل من التراث، وأضعف في تفكيره وتكوينه من أن تحول التراث في ذهن «البعض» إلى عقيدة سلبية وتدميرية، لم تحتفظ منه إلا بأمور العقوبات والمنع والتحريم، ونسيت جوانبه العقلية والإيجابية، ولماذا يصبح لهذا الخطاب - أي الاعتزاز بالتراث- صدى في الأوساط الشعبية أو المثقفة؟ ولا يجب أن يعمينا هذا الخطاب عن حقيقة التراث والتعامل معه...أهـ.

سؤال: بعد الاستماع لهذا النص الطويل أريد أن أتساءل مع كاتبه: من يستحق المحاكمة والمساءلة: نحن أم التراث؟

جواب: يبدو أن الإنسان يريد أن ينسب كل نجاح لنفسه، وقد يغمط حقوق كثيرين ساهموا معه، فإذا فشل فتش عن كبش فداء، فإن لم يجد رمى فشله على القدر، وهنا وجدنا الكبش - أو بعضنا- في التراث، فهو المذنب الأكبر والمسؤول الأعظم عن كل فشل نلقاه.

سؤال: لو وقف بعض أعداء التراث وصرخ، وما أكثر الذين يصرخون اليوم!! وقال: لا، لم نفشل ولن نفشل، وسيأتي يوم نجر الأسد من ذيله، فما الجواب؟

جواب: هذا جيد، وإذن فلنعمل مقارنة بيننا وبين اليابان.

سؤال: لماذا اخترت اليابان دون شعب آخر؟

الجواب: لأننا سبقنا اليابان بمحاولة النهوض بنصف قرن، فقد أرسلت مصر بعوثاً إلى أوروبا، وبعد نصف قرن حاولت اليابان ذلك، بل أرسلت إلى مصر بعثة كي تستفيد من التجربة المصرية، وفعلاً جعلتها برئاسة رجل دين كما فعلت مصر، ثم لنقارن اليوم ما وصلت إليه اليابان وما وصلنا إليه؟

لي كُتيب متواضع عن تجربة اليابان، على أمل أن نستفيد منها، ومما توصلت إليه، أن اليابان تتلمذت على الغرب، وحاولت نقل الحضارة بما فيها من صناعة وعلوم وتكنولوجيا، ولكنها لم تنسلخ من تراثها حتى اليوم، لقد تتلمذ الياباني على الغرب فقلده أولاً، ثم راح يبدع ما استطاع، حتى جاء اليوم الذي رأينا التلميذ وقد تقدم على أستاذه، وراح ينافسه منافسه الند للند.

سؤال: وما فعلنا نحن بإيجاز؟

جواب: لقد كنا وما نزال مجرد.. زبون.. والزبون يأخذ حاجته ويدفع ثم يذهب، أرجو أن استعرض تجربة فريدة، وأسلط الضوء عليها، فهي تحمل دلالات كبيرة ومعاني عظيمة.

مع اليابان في تجربته

أود أن أذكر نموذجاً فذاً لطالب ياباني، أرسلته بلاده للحصول على شهادة الدكتوراه، وبعد ثماني سنوات من الكد والكدح، ترك الدكتوراه وعاد ليصنع بنفسه وخبرته محركاً. إنه نموذج فريد في التنمية، يحمل شعوراً عالياً بالمسؤولية.. اسم الطالب «تاكيو أوساهيرا»[1]، كان يدرس في بلده فنصحه أحد أساتذته بأن يدرس الميكانيكا في جامعة «هامبرغ» ليحصل على شهادة الدكتوراه، ويبدو أن الطالب كان متفوقاً، لذا لم يجد صعوبة في الحصول على ابتعاث من حكومته، كان السهم الأول إلى «تاكيو» أن يتعرف على محرك، ليعرف كيف يعمل، وقد سيطرت عليه الفكرة، حتى توصل إلى قناعة مفادها: أن سر الصناعة الغربية يكمن في هذا «المحرك»، لذا كان شوقه، بل كل أشواقه أن يتعرف على المحرك عن قرب، وكان أعظم نزهة له أن يدخل مصنعاً، ليرى كيف تتم صناعة هذا «المعشوق» وكانت المفاجأة الأولى أن الجامعة قدمت له كتباً كي يقرأ، وهو يريد مصنعاً ليرى.

ومع ذلك راح «تاكيو» يلتهم الكتب، يقرأ الساعات، لكن حلمه لم يتحقق، ولُقاه مع المعشوق تأخر، وللناس فيما يعشقون مذاهب، هذا يعشق الجمال، وذاك يعشق المال، وثالث يعشق الجاه، ولكن العاشق «تاكيو» صار يعشق «المحرك» ويموت فيه حباً، عشق غريب، أليس كذلك ياعرب؟

---

(١) في أعماق التجربة اليابانية، للكاتب، ط١، ص٢٥.

وأخيراً، جاء الفرج، فقد قرأ في الصحف أن معرضاً لمحركات إيطالية سيقام، أخذ العاشق راتبه ليدفعه ثمناً لمحرك صغير، قوة «حصانين»، دفع مرتبه كله، ولو كلفه بيع ملابسه لم يتأخر، إنه عاشق وكفى!! حمل هذه «الدرة» ووضعها في غرفته وراح يتأملها، وأشك أنه نام تلك الليلة.

راح يحدث نفسه قائلاً: هنا يكمن سر قوة أوروبا، فإذا استطاعت اليابان أن تصنع مثله فسوف يتغير تاريخ اليابان.

بعد أن شبع «تاكيو» من التأمل قرر أن يفكك المحرك أولاً، ثم يعيد تركيبه، ثم يحاول تشغيله بعد ذلك، فمتى حصل ذلك، فقد كشف السر الكبير.. أحضر كمية من الورق، وكلما فك قطعة رسمها وأعطاها رقماً خاصاً، حتى إذا انتهى من ذلك، قام فأعاد التركيب، وبادر إلى تشغيل المحرك، فلما اشتغل، يقول «تاكيو»: كاد قلبي أن يتوقف من الفرح، لقد كلفه ذلك ثلاثة أيام من العمل المتواصل، كان يتناول خلاله وجبه طعام واحدة، أما النوم فكان سويعات قليلة، هرول «تاكيو» نحو رئيس البعثة، وكان رجل دين ليخبره بما صنع، لكنه تلقى جواباً لم يكن يتوقعه، قال له: سآتيك بمحرك عاطل عن العمل، وعليك أن تفككه أولاً، لتتعرف على مكان العطل والخلل، ولتقوم بإصلاحه بنفسك، ثم تشغيله، فمتى اشتغل فقد نجحت.. كانت التجربة أقسى وأكبر من شراء محرك جديد وتفكيكه وإعادة تركيبه وتشغيله، ومع ذلك قبل «تاكيو» التحدي بعزيمة وهمة عالية، لقد كلفته العملية جهداً كبيراً، لمدة عشرة أيام، حتى استطاع أن يفكك المحرك، ويتعرف على القطع، التي أصابها التلف، فوجدها ثلاث قطع وليست واحدة، وكان التحدي الثاني أكبر،

إذ عليه أن يصنعها بيديه، مما كلفه الالتحاق بمصنع لصهر المعادن، فترك الجامعة مؤقتاً، وتحول إلى عامل سباكة، يسمع ويطيع لمدير المصنع، وصبر حتى صنع القطع، وأعاد تركيب المحرك وتشغيله، حتى شهد له المشرف بذلك، ويبدو أنه كتب بخبره إلى الإمبراطور الياباني، الذي سُرّ بذلك أعظم السرور، فقدم هدية لهذا الطالب الجاد قدرها خمسة آلاف جنية ذهباً.

كان «تاكيو» قد أمضى بين الدراسة والتدريب ثماني سنوات، يشتغل بمعدل خمس عشرة ساعة يومياً، ويراجع ليلاً ما درسه.

وحين قبض هدية الإمبراطور اتخذ قراراً بالعودة لبلاده، على أن يشتري معدات بهذا المبلغ وليصنع محركاً، مهما كان الثمن.

حين وصل إلى بلاده أُخبر بأن الإمبراطور يريد مقابلته، فقال: لا أستحق هذا الشرف إلا إذا قمت بصناعة محرك ياباني.. كلفه هذا التصميم أن يعمل تسع سنوات متصلة، لينجز أخيراً صنع (عشرة محركات) وليأمر الإمبراطور بتخصيص قاعة في قصره لهذه المحركات، وعندما دارت المحركات دخل «الميكادو» القاعة، وكعادة اليابانيين انحنى الكل، فابتسم الإمبراطور وقال: هذه أعذب موسيقا سمعتها في حياتي.. بعد ذلك ذهب «تاكيو» إلى المعبد ليصلي شكراً.

يقول «تاكيو»: بعد ذلك نمت - لأول مرة - عشر ساعات متواصلة..

إن «تاكيو» يمثل طموح شعب بكامله، لقد ترك الدكتوراه وما تعنيه، وأنا أقول: أعطوني «تاكيو عربي» وخذوا ألف شهادة دكتوراه، والسلام.

التراث والمشاكل

إن التراث يمثل جهدنا الفكري والأدبي، وعلى الذين يحاكمونه أن يعلموا ذلك، ولا يطلبوا منه حل إشكالات جديدة لم تعرفها مجتمعاتنا، ولا إبداع قضايا تتعلق بمشكلات التصنيع، فتلك مهمة صعبة، وأخيراً علينا أن نتشجع فنعترف بالفشل كما نباهي بالنجاح، فكثير من الناس إذا نجح في حياته، نسب ذلك لنفسه، فإذا فشل رمى كل ذلك على قدره.

ود. برهان غليون يشخص هذا الواقع بشجاعة، ويطالب بمحاكمة عقولنا، وليس صب النقمة على تراثنا فيقول[1]: هل تقدر الثقافة العربية - والمقصود ضمناً التراث- على استيعاب الحضارة؟ أو بعبارة أخرى: هل نستطيع أن نستوعب نحن الحضارة، من أفقنا الثقافي؟ هل نستطيع أن نتحضر، ونبقي أنفسنا ذاتاً فاعلة في الحضارة، وكياناً يؤثر فيها، بالقدر الذي يتأثر؟ عندئذ يكون سؤالنا: لماذا أخفق العقل الحديث، عقلنا الحي، في تحقيق النهضة الثقافية، وتكون المحاسبة للعقل، لا للتراث؟

فكما أنه من اللاعقلاني أن نفسر إخفاق تجارب التنمية الاقتصادية وحركة التصنيع بوجود الزراعة أو الاقتصاد الزراعي، التجاري القديم، فمن غير

---

(١) اغتيال العقل، ط٦، ص ٣٣١.

المعقول أن نفسر إخفاق التنمية الثقافية، والتحرر الفكري بإلقاء التهمة على «التراث»، لكن كما أن إخفاق التصنيع نتج في جزء رئيسي منه عن الاستهتار بالزراعة، فإن إخفاق التحرر العقلي قد نجم عن إهمال قطاعات الثقافة الكبرى والأساسية لصالح ما أسميناه بالتعليم «العقلاني العلمي»، وفي الواقع فإن المسؤولية هنا وهناك هي مسؤولية العقل والفكر المنظِّر والموجه للتغيير، لذا نحن نقول:

حان الوقت للانتقال من «تهديم التراث» إلى محاسبة العقل، وليس التراث، وليس الثقافة، إنه نظام تفكيرنا الراهن، ومحاسبة العقل تعني محاسبة أنفسنا، نحن جيل المتعلمين، الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض والتحرر العقلي، أما محاسبة «التراث» فهي محاسبة لأسلاف لم يدركوا عصرنا، ولا كان بمقدورهم أن يفهموه فيتركوا لنا في تراثهم الحلول، التي نحتاجها، لمواجهة مشاكلنا الراهنة، وما كان عليهم أن يفعلوا ذلك.

وعندما نقول: حان الوقت للانتقال من نقد التراث إلى نقد العقل، فنحن نقصد أيضاً أن العقل هو نحن، لا بمعنى أننا وحدنا العقلانيون، ولكن بمعنى أننا الوحيدون، الذين ما يزال بإمكاننا أن نفكر، أي أن نحكم العقل، لأننا أحياء أما التراث فلا يستطيع ذلك. وليس الذين يدعون للتراث هم من التراث، وأخيراً، فالسؤال الذي يطرحه العقل النقدي هو: لماذا يحسن التعامل مع التراث، كما هو أضعف من أن يستطيع أن يُخرج من التراث الرصيد، الذي يحتاج إليه، للتعامل مع التاريخ، والجماعات البشرية الأخرى؟ باختصار، العيب فيه وليس بالتراث، فهو إنسان لم يملك بعد روح المبادرة والإبداع

والبناء، ومن كان كذلك فلن يستطيع أن يلعب دوراً على الساحة الحضارية العالمية، وهو مفلس، لا رأسمال له.

إن هذا الرأسمال الفكري والروحي، لا يستطيع أحد أن يقترضه من أحد، لا من صندوق النقد الدولي، ولا من سواه، فكل من ليس لديه روح إبداع، فلن يستطيع التعامل مع التراث، وأخيراً، فالتراث لا يغني عن الإبداع، ولكن الإبداع لا يتحقق بدون تراث.

والحقيقة، فأنا مندهش من اختلاق هذه المشكلة المصطنعة والمدمرة، في الفكر العربي الحديث، فالعالم لا يعرف أمة تشكو من تراثها، وتجعل منه موضوع مناقشة وأخذ ورد كما نفعل نحن!

إن الأمم كافة تفتخر بتراثها، تدرسه وتقلبه على أوجه مختلفة، تعيش عليه وتستثمره، ليس هناك أمة تطرح على نفسها استبدال التراث بالحاضر، أو نفي التراث أو نفي الحاضر، كما ليس هناك أمة تجعل من التراث ذريعة للكسل والجمود، أو حجة لغياب القدرة على استيعاب التاريخ، الحقيقة المرة هناك أمر «مَرَضي» في طرح موضوع التراث في العالم العربي، وأعتقد أن السبب لهذا الإشكال هو ضعف العرب اليوم، وضآلتهم الأدبية والروحية، وخمود همتهم، بالمقارنة مع ما يمثله التراث من رمز للمجد والعظمة والقوة، لقد صار التراث مصدر قلق دائم لهؤلاء، ومنبع خجل متراكم في أنفسهم.

من الحق أن نقول: إنه ما من أمة ورثت تراثاً أفضل وأعظم من تراثنا، فهو تراث متكامل: ديني وعلمي وأدبي، كما هو سياسي واقتصادي،

وهو تراث يجمع بين تدعيم الشخصية القومية، والانفتاح السهل على العالمية والثقافات، والجماعات الأخرى، وهو بهذه الصفات يتجاوز مثلاً التراثين الصيني والهندي الكبيرين.

ربما كان التراث لعظمته وقوته يشكل عبئاً بالنسبة لقزامة أهدافنا، وخور إرادتنا اليوم، إنه يشكل حملاً ثقيلاً علينا؛ لأنه يذكرنا دوماً بضرورة العمل، والارتفاع إلى مستوى الحضارة المطلوب.

إنه يحمل لنا صوراً رائعة، لجهود عظيمة للأجداد، تكشف عن علاقتهم بالتاريخ والعالم، وكل ذلك -كما يبدو- يشكل مجال قلق كبير وعميق لبعض النخب الثقافية والاجتماعية؛ لأنها تبدو صغيرة، وغير مطابقة للصورة التاريخية، ومن هنا فلا شرعية لها. إن الإسلام كدين، عقيدة وشريعة، والعربية كلغة، والعروبة كانتماء، أوسع وأكبر من أية دولة أو جماعة، ومن الصعب على أي قُطْر لوحده أن يحمل ذلك أو ينهض به منفرداً.

سؤال: تصور لا ينقصه الوضوح ولا الحماس، ولكن السؤال: كيف يمكن أن يقتنع به الكل، وأن يتحول من مجرد اعتقاد نظري، إلى واقع عملي؟

الجواب: المشروعات النهضوية كلها تبدأ أفكاراً يبشر بها فرد أو جماعة، ثم تصبح سياسة تمثلها دولة أو أكثر، فأوروبا، التي غرقت في حروب لا نهاية لها، ذهب ضحيتها ملايين البشر، خصوصاً في الحربين العالميتين، تتحد اليوم اقتصادياً، وتعمل لتكوين وحدة سياسية؛ وهذه الصين تجمع في حدودها الجغرافية أكثر من مليار من البشر، في دولة مركزية واحدة.. فالمشروعات الكبرى تبدأ بفكرة لتنتهي بالتطبيق، ولا شيء يولد كبيراً كاملاً.

التراث رأسمال

التراث رأسمال الأمة، والتفريط فيه خسارة كبيرة؛ د. برهان غليون يقول[1]: من الوهم أن تعتقد جماعة أنها تستطيع أن تندمج في الحضارة من دون أن تحيي تراثها، بالتغاضي أو بالتخلي عنه، فالنتيجة لن تكون إلا انتقاماً أكبر للماضي من الحاضر، وتهديداً أعظم لأي جهد تجديدي، كما أنه من الوهم أن تعتقد جماعة أيضاً أن تراثها بمفرده مهما كانت عظمته يمكن أن يحفظ لها استقلالها وحريتها ونجاعتها التاريخية؛ إن اكتساب التراث الحضاري الجديد، لا يشكل شرطاً أساسياً للدخول في التاريخ المعاصر فحسب، ولكنه شرط أساسي أيضاً لإعادة الفاعلية، والقيمة الجادة للتراث القديم.. إن مصير الأمم مرهون بمقدراتها على أن تجعل من تراثها - أي ثمرة أجيالها الماضية وتراكماتها- رأسمالاً قابلاً للتوظيف في عمليات التجديد والتحضر.

هذا هو التراث في نظر أستاذ جامعي عربي الأصل في جامعة السوربون، وهذه مهمته، فلا هوية ولا استقلال ثقافي من دون تراث، لكن من يريد أن يساهم في حضارة العالم، فعليه أن يقوم بجهود كبيرة، ولا يكفي أن يعتمد على التراث أو يقف عند حد التغني به والمفاخرة فيه.

---

(١) اغتيال العقل، ط٦، ص٢٧٥.

سؤال: هل أفهم من النص السابق أن لا بد من العمل في حقلين في آن واحد، حقل التراث وإعادة قراءته واستثماره، والتطلع لأخذ دور في حضارة العالم؟

جواب: هذا ما يطرحه د. غليون في أكثر كتبه، فهو ضد أولئك الذين يريدون الاكتفاء كلياً بالتراث، وضد أولئك الذين يريدون حرق التراث، بحجة الالتحام بالحضارة الجديدة واستيعابها.

سؤال: هل يمكن عرض صورة لمن لا يثق بالتراث ولا يرى جدوى من العناية به وإحيائه؟

جواب: يقول أحدهم، هذا التراث كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته؛ لأنه يدور أساساً على محور واحد، هو العلاقة بين الإنسان والله، على حين أن الذي نلتمسه اليوم في النهضة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان، فالوصول إلى ثقافة علمية وتقنية صناعية لن يكون بالرجوع إلى تراث قديم، بل أن نتجه إلى أوروبا وأمريكا نستقي من منابعها، ما تطوعوا بالعطاء، وما استطعنا من القبول، وتمثل ما قبلناه[1].

سؤال: هذا منطلق الكثير ممن يعارضون التراث، فكيف يمكن مناقشة هذه الآراء؟

جواب: دعوى أن التراث كله يدور حول علاقة الإنسان بالله غير صحيح إطلاقاً، وإن كانت أصولنا سماوية، فمن يدرس الإسلام سيجد عقائد وعبادات وأخلاق ومعاملات بين الناس هي الأكثر والأعم.

---

(١) زكي نجيب محمود، تجديد الفكري العربي، ص١١٠.

لنأخذ المعاملات وأولها الأحوال الشخصية من زواج وطلاق ونفقه ووصية وإرث، كل تلك التشريعات للبشر وبين بعضهم بعضاً، فإذا انتقلنا للمعاملات من بيع وشراء وإجارة ورهن وربى وشركات وقروض وشُفْعة وسَلم وكافة العقود، فهي بين البشر حصراً.

وهناك نظام الحكم وشروط الحاكم وحقوقه وواجباته، وحقوق وواجبات المحكوم، كلها أمور بشرية.

ومثل ذلك، الأمور المالية، من أين تُؤخَذ ولمن تعطى وأين تنفق، كلها من البشر وإليهم.

أمر آخر: أولئك الوافدون على بلاد المسلمين، من غير المسلمين ما هي حقوقهم وما هي التزاماتهم وواجباتهم، كل ذلك بين البشر.

علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى، في حالتي السلم والحرب، كل ذلك علاقات بشرية، ليس للملائكة، ولا للجن ولا لأحد دخل بها.

بل يمكن القول: إن الإسلام جاء لينظم علاقات المسلم بأخيه المسلم، وبغيره، كما جاء لينظم علاقة الدولة المسلمة بالدول الأخرى، وجاء أيضاً بتنظيم العلاقة بين العبد وربه، وهي علاقة لا يمكن أن تُترك بدون رسم وضبط، كما يتعذر أن تترك للإنسان يرسمها كما يشتهي ويريد، وبالتالي فدعوى أن تراثنا الثقافي والفكري والأدبي كله يعمل لرسم العلاقة مع الله تعالى فقط، دعوى تتسم إما بالجهل أو سوء القصد، وإن أفضل من يرد عليها

د.برهان غليون، فهو غير متهم من هذه الجهة، فهو يقول: بصوت عالٍ مرتفع، ويكرر ذلك كثيراً فيقول[1]:

«إن الجماعات على حسب عطالتها وجمودها يأتي ولعلها بالخوارق والمعجزات، وقد نظر الوعي العربي الحديث إلى العلم والتقنية، فوجد فيهما السحر الشافي لجميع الأمراض، وزاد من قوة هذا السحر تواتر الاختراعات العلمية، التي توحي بإمكانية الحصول على كل شيء دون جهد سوى.. الضغط على الأزرار.. ولما لم يتحقق لنا شيء – مع مرور الوقت- وبقي عالمنا العربي كما هو، لم يجد «الوعي الحديث» تفسيراً لهذا القصور إلا في «التراث»، بحيث صار الاعتقاد بأن التراث هو «القيد»، الذي يحرم الوعي من الانطلاق نحو العصرية والتحضر، فصارت النهضة تعني .. الثورة على التراث، كما أصبح إقصاء التراث من التاريخ وإبعاده هو أساس التقدم وشرطه معاً...».

هذا التصور هو سبب العداء للتراث، وهو تعليل غير مناسب ولا صحيح لحالة إحباط يعاني منها هؤلاء الإخوة، وننصحهم بالبحث عن سبب معقول لما نحن وَهُمْ فيه من معاناة وتأخر، لا دخل للتراث فيه.

(١) اغتيال العقل، ص٢٠٣.

ما يملكه عرب الجاهلية

في عرب الجاهلية فساد كبير في الدين والاعتقاد، وضلال عبادة لأصنام لا تنفع ولا تضر، ومن هنا جاء وصف.. «الجاهلية»، لكنهم يملكون صفاتٍ خُلُقية جيدة مثل الصدق والعفة والشجاعة وحفظ الأمانة ورعاية الجوار وإكرام الضيف، وأمثال ذلك كثير، وهكذا يمكن أن نفهم قول الحق: ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام:١٢٤)، في الأشخاص والشعوب، لذا فقد شهد العالم نهضة في مدة قصيرة، بعد أن تخلص إنسان الجاهلية من فساد العقيدة وسلبياتها.

وهذه «عينة» جيدة، ترى ما يلحق بالمسلمين عموماً، وبصاحب الرسالة من أذى، فتنكره وتحمله على ترك بلده؛ لأنه لم يستطع منع قومه من ذلك.

ويجد ثمة أموال مودعة عند أبيه.. قد صارت أمانة عنده، فيطلبها قومه، فيرفض تسليمها ما دام حياً، ولا يكتفي بل يتكلف بالسفر إلى المدينة، ليقابل صاحب الرسالة ﷺ وهنا يشترط عليه قومه أن لا يتناول طعاماً، ولو كان جائعاً، فيلتزم بهذا الشرط الغريب، ويعاونه صاحب الرسالة في الوفاء بما تعهد.

إنه «جبير بن مطعم»، فقد كتب الذهبي في موسوعته الرائعة «سير أعلام النبلاء» قال جبير بن مطعم[1]: كنت أكره أذى قريش لرسول الله، فلما ظننا أنهم سيقتلونه لحقت بدير من الدِّيارات – والدير مكان عبادة للنصارى– فذهب أهل الدير إلى رئيسهم فأخبروه، فلما اجتمعت به وقصصت عليه أمري قال: تخاف أن يقتلوه؟ قلت: نعم، قال: وتعرف شبهه لو رأيته مصوراً؟ قلت: نعم، قال الراوي: فأراه صورة مغطاة، كأنها هو، وقال – أي رئيس الدير–: والله لا يقتلوه، ولنقتلّن من يريد قتله، وإنه للنبي، فمكثت عندهم حيناً، ثم عدت إلى مكة، وقد ذهب رسول الله إلى المدينة، فتنكر لي أهل مكة وقالوا: هلم أموال «الصبية» – أي من صبأ – ويقصدون المسلمين– التي عندك والتي استودعت عند أبيك، فقلت: ما كنت لأفعل هذا حتى تفرقوا بين رأسي وجسدي، ولكن دعوني أذهب فأدفعها إليهم، فقالوا: لنا عليك عهد الله وميثاقه أن لا تأكل من طعامه، أي من طعام رسول الله ﷺ.

فقدمت المدينة، وقد بلغ رسول الله ﷺ الخبر، فدخلت عليه فقال لي فيما يقول: «**إِنِّي لأَرَاكَ جَائِعًا، هَلُمُّوا طَعَامًا**»، فقلت: لا آكل خبزك، فإن رأيت أن آكل أكلت، وحدثته – أي بما أخذ عليه من عهد، فقال: «**فَأَوْفِ بِعَهْدِكِ**».

سؤال: هل كان قد أسلم في هذا الوقت؟

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٩٦/٣.

جـواب: لا، لم يكـن قـد أسـلم، ولـكنه يحفـظ أمـانة كانـت مودعـة لدى أبيه، ثـم صارت إليه، ومن واجبه -حسب العرف- أن يسلمها لأهلها، ولو كلفه ذلك روحه.

سؤال: ما دام على دين قومه فلماذا التزم لهم بالعهد مع شدة جوعه، ولماذا شجعه صاحب الرسالة على الوفاء بوعده؟

جواب: هذا أيضاً من خلق أهل الجاهلية، لقد التزم وعَيْبٌ عليه خرق هذا الالتزام.

أما تشجيع صاحب الرسالة له، فهو يدعو للوفاء بالعهد بنفسه، ويدعو المسلمين لذلك، ويشجع حتى الكافر عليه، لأن الوفاء بالعهد خلق كريم، وسيعود هذا الرجل إلى قومه ويخبرهم بكل ما حصل فيعرفون أن الإسلام يعلم الناس هذا الخُلُق، إلى أمثال ذلك من الخلق النبيل.

وبالمناسبة، فحين ابتلي الإسلام والمسلمون بالنفاق والمنافقين، وحصول الأذى الكبير منهم، حيث صاروا (طابوراً خامساً) يشيعون التخاذل وقالة السوء، طلب بعض الصحابة أن يُقْتَلوا، فرفض رسول الله، عليه السلام، ذلك، معللاً: كي لا تقول العرب بأن محمداً يقتل أصحابه؛ لأن المنافقين كانوا جزءاً من المجتمع الإسلامي شكلاً، وإن كانوا من الأعداء حقيقة.

من هنا، كان جواب صاحب الرسالة: «فَأَوْفِ بِعَهْدِكِ»؛ ليكون درساً لمن خلف «جبير» وليعلموا عملياً أن صاحب الرسالة لا يكتفي بالدعوة القولية، بل بالفعل كذلك.

قضية أخرى، ولكن من محيط آخر، فحين باشرت أمتنا بالنهوض ودخول التحضر من أوسع أبوابه، شاع فيها حب العلم والتعلم، بل عشق ذلك، يستوي فيه الغني والفقير، والصغير والكبير، والحر والعبد، وراح العلماء يتعهدون طلبتهم، فإذا وجدوا طالباً نابهاً التزموه ووفروا له ما يحتاج، ولو كان فقيراً معدماً. يُنقل عن أبي يوسف، تمليذ أبي حنيفة، وخليفته في المذهب، قوله: كنت أطلب العلم وأنا صُقِلٌ - أي فقير- فجاء أبي وقال: يا بني، لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فأنت محتاج، فأثرت طاعة أبي، فأعطاني أبو حنيفة مئة درهم، وقال: الزم الحلقة، فإذا نفذت هذه فأعلمني، ثم أعطاني بعد أيام مئة[1].

فحين يجد الطالب أستاذاً يتعهده هكذا، فلن يقصر في العلم، ولن يزهد فيه، ولن يعرض عنه ليشتغل في أمر آخر، ومعروف أن أبا يوسف صار قاضي القضاة، أي وزير العدل في مصطلحات اليوم.

---

(١) المرجع السابق، ٨/٤٧١.

عمرو وملك الإسكندرية

عمرو بن العاص ﷺ أحد دهاة العرب، تولى فتح مصر وحكمها لعمر وعثمان ومعاوية، رضي الله عنهم، حتى توفي، وكان لثقته بنفسه وحسن تخلصه يؤثر مقابلة الأعداء بنفسه، يقول[1]:

خَرَجَ جَيْشٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - أَنَا أَمِيرُهُمْ -حَتَّى نَزَلْنَا الإِسْكَنْدَرِيَّةَ، فَقَالَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَائِهِمْ: أَخْرِجُوا إِلَيَّ رَجُلا يُكَلِّمُنِي وَأُكَلِّمُهُ، فَقُلْتُ: لا يَخْرُجُ إِلَيْهِ غَيْرِي، قَالَ: فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَمَعِي تُرْجُمَانِي وَمَعَهُ تُرْجُمَانُهُ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ فَقُلْتُ: نَحْنُ الْعَرَبُ، وَنَحْنُ أَهْلُ الشَّوْكِ، وَنَحْنُ أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، كُنَّا أَضْيَقَ النَّاسِ أَرْضًا، وَأَجْهَدَهُمْ عَيْشًا، نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ، وَيُغِيرُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى خَرَجَ فِينَا رَجُلٌ لَيْسَ بِأَعْظَمِنَا يَوْمَئِذٍ، وَلا بِأَكْثَرِنَا مَالا ، فَقَالَ أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَأَمَرَنَا بِمَا لَا نَعْرِفُ، وَنَهَانَا عَمَّا كُنَّا عَلَيْهِ، وَكَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا، فَكَذَّبْنَاهُ وَرَدَدْنَا عَلَيْهِ مَقَالَتَهُ، حَتَّى خَرَجَ إِلَيْهِ قَوْمٌ غَيْرُنَا فَقَاتَلْنَا وَظَهَرَ عَلَيْنَا وَغَلَبَنَا، وَتَنَاوَلَ مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ يَعْلَمُ مَنْ وَرَائِي مِنَ الْعَرَبِ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا جَاءَكُمْ حَتَّى يُشْرِكَكُمْ فِيمَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ. فَضَحِكَ ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَكُمْ قَدْ صَدَقَ،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/٧٠؛ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

قَدْ جَـاءَتْنَا رُسُلُنَا بِمِثْلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُكُمْ ، فَإِنْ أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ بِأَمْرِ نَبِيِّكُمْ لَمْ يُقَـاتِلْكُمْ أَحَـدٌ إِلَّا غَلَبْتُمُـوهُ ، وَلَـنْ يُشَـارِكَكُمْ أَحَـدٌ إِلَّا ظَهَـرْتُمْ عَلَيْـهِ ، وَإِنْ فَعَـلْتُمْ مِثْلَ الَّذِي فَعَلْنَا وَتَرَكْتُمْ أَمْرَ نَبِيِّكُمْ لَمْ تَكُونُوا أَكْثَرَ عَدَدًا مِنَّا وَلَا أَشَدَّ مِنَّا قُوَّةً».

إنه وصف جيد لواقع عاشه العرب قبل الإسلام وبعده، وإجابة من حاكم الإسكندرية تنم عن معرفة جيدة بمواطن القوة والضعف، وعوامل النصر والهزيمة، فالعرب الذين حملوا الإسلام للعالم، لم يكونوا يوماً أكثر عدداً وعدة من الفرس أو الروم، ولكنهم يملكون عقيدة حية، لا يملك مثلها الفرس أو الروم، وهنا من المفيد أن نستذكر ثلاثة أحوال للعرب.

سؤال: ثلاثة أحوال أم ثلاث مراحل متميزة؟

جواب: سمها ما شئت: أولها: كيف كان حال العرب قبل الإسلام؟ وثانيها: كيف صار حالهم بعد أن حملوا الإسلام وتمسكوا به، شريعة وعقيدة وحضارة؟ وثالثها: كيف صار حالهم بعد أن تراخى تمسكهم بالإسلام، وجرى نوع من التساهل في عقديتهم، والجمود في أمر التحضر والتمدد؟ وفي هذا كفاية لمن يريد أن يعتبر.

في حياة أمتنا رجال ربانيون، كانت نفوسهم كبيرة وهممهم عالية، جعلوا همهم الأول طلب رضا مولاهم، وكانت الدنيا بكل ما فيها آخر ما يشغل قلوبهم، يروي لنا الذهبي أن هشام بن عبد الملك الأموي دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله هناك، فقال له: سلني حاجتك، قال سالم: إني أستحي من

الله تعالى أن أسأل في بيته غيره، فلما خرجا قال هشام: الآن فسل حاجتك، قال: من حوائج الدنيا أم الآخرة؟ قال: من حوائج الدنيا، قال سالم: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟

منطق الرجال الكبار، والنفوس العفيفة، منطق رجل رباني يستحي أن يسأل أحداً غير خالقه، فاللهم أبعد الطمع عن نفوسنا، ولا تجعلنا نتوجه بالسؤال لغيرك، يا أرحم الراحمين.

سؤال: مازالت العرب، قديماً وحديثاً، تحب الكرم، وتتناقل أخباره، فما السر وراءه؟

جواب: لكل أمة صفات تحبها وأخرى تكرهها، والكرم على رأس الصفات المحببة للعرب، وبفضل هذه الصفة الجيدة ربما عاش الناس، وسدت فاقة كثير، ولكن أن يقع الكرم من إنسان معروف في مجتمعه، فذلك لا غرابة فيه، وأن يقع من عبد وقاطع طريق، وقاتل سافك للدم، فذلك أمر غريب، يذكر أبو حيان التوحيدي في كتابه الرائع «الإمتاع والمؤانسة» [1]، أن عبداً أسوداً كان يأوي إلى قنطرة، وكان فاتكاً قاطعاً للطريق، وتجمع لديه مال فاشترى جارية بألف دينار، وكانت رائعة الجمال، وهذا المبلغ يساوي في زماننا كذا مليونا، فما صارت إليه طلبها فامتنعت، فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كما أنت، فقال لها: ما تحبين؟ قالت:

---

(١) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (بيروت: منشورات الحياة) ٣/١٦٠.

أن تبيعني، قال لها: أو خير من ذلك؟ أعتقك وأهب لك ألف دينار، قالت: نعم، فأعتقها وأعطاها ألف دينار بحضرة القاضي «أبي الدقاق»، فعجب الناس منه ومن همته وسماحته، ومن صبره على كلامها، وترك مكافأتها على كراهتها».

إنها أريحية وكرم نفس ليس فوق كرم، ومن إنسان لا ينتظر منه مثل هذا الفعل، ولكنها نفوس كبيرة، محبة للخير والذكر الحسن، وإن جمعت إلى ذلك قطع الطريق وسفك الدماء، وهذا يدل على أن بعض النفوس تحمل نوازع الخير، مع ما تمارسه من إجرام وقتل وسفك للدم، وصدق الله القائل عن الإنسان: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠).

فالإنسان ليس مجرماً بفطرته ولا شريراً كذلك، وهو أهل للاهتداء متى وجد من يأخذ بيده ويشجعه على ذلك.

دفاع عن التراث

أحب أن أصف د. برهان غليون، بأنه من المدافعين عن التراث، يعرف ما يريد، لا يتزيد ولا يبالغ.. وهذه عينة من أقواله[1]:

إن موقفنا من التراث يشكل تعبيراً عن عجزنا عن السيطرة على واقعنا الحاضر، وتحكما بأنفسنا، وقدرتنا على استثمار رأسمالنا، ولأننا نرفض الاعتراف بذلك، ولا نقبل بالتغيير، فنحن نلجأ إلى آليات وهمية، نلقي بمسؤولية الفشل من خلالها على (التراث والماضي والتاريخ والأجداد) ومثلنا مثل من ورث قصراً عظيماً عتيقاً، فراح يشتم أجداده، لأنهم لم يقوموا بترميمه قبل أن تنتقل ملكيته إليه، ولأننا لم نعرف قيمة القصر، أو بعضنا على الأقل، ولا تعودنا الحياة الرحبة فيه، ولا أحببنا طرازه، صار موقفنا منه موقف أولئك الذين يريدون تفكيك القصر وتهديمه، ربما ليستخدموا حجارته في بناء «أكواخ» على مقاسنا الروحي والإنساني، هكذا أراد له الماديون ليكون مادياً، والليبراليون ليكون ليبرالياً، والقوميون ليكون قومياً عروبياً أو إقليمياً... فكل حاول أن يأخذ نصيبه منه كما يشاء، وهذا يعني دمار التراث وهدمه بالضرورة، هذا هو موقفنا من التراث، ولو فكرنا بطريقة أخرى، لأدركنا أنه

---

(١) حوارات من عصر الحرب الأهلية، ص٢٦٤.

تراث إنساني، فيه الروحي والعقلي والمادي معاً، ذلك لأنه كان يعبر عن مجتمع ومدينة وحضارة، لا يمكن قيامها جميعاً دون اجتماع ذلك كلّه.

إن وراء تهديمنا للتراث يكمن عجزنا عن الإنتاج، وسرعتنا في استهلاك ثروة الأجداد والتي لـم نتـعب في صنعها.. نحن لا نثابر على الشكوى منه إلا لأننا ما نزال في قبضة التراث، وندين له في وجودنا، فنحن لم نستطـع أن نستقل عنه، ولم نستطع أن نعامله باستقلال وموضوعية؛ لأننا لم نستطع أن نبني رأسمالنا الشخصي العصري، نحن مازلنا إذن معقَّدين منه، وهذه العقدة تجاه التراث، تفسر صعوبة تعاملنا معه، وصراعنا الدائم على استخدامه واقتسام معانيه، أي تأويله بما يناسب كل طرف منا».

سـؤال: ألا ترى أن «المحـامي» قد غلبه الحماس فراح يتحدث وكأن الأمـة كلها تعادي التراث، وتريد التخلص منه، أو استهلاكه عن طريق التأويل وغيره؟

جواب: للإمام مالك، رحمه الله، كلمة مازال يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، فهو يقول: كل أحد يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر صاحب الرسالة.

فلا معصوم من الخطأ إلا من عصمه الله تعالى من ذلك، وعموماً فكلام العاقل لا يكون كله صواباً دائماً؛ لأن ذلك يتطلب العصمة، ولا معصوم اليـوم، كذلك لن يكون كلامه كلـه خـطـأ؛ لأن ذلك يستـدعي الشك في سلامة عقله.

سؤال: هذه معادلة صعبة، بل معضلة، فما الموقف السليم في ذلك؟

جواب: الموقف السليم أن نعتقد أن لا معصوم بعد وفاة صاحب الرسالة، عليه السلام، وأن الناس العقلاء يخطئون ويصيبون، نقبل صوابهم، ونرفض ونرد خطأهم، لكن...

سؤال: ماذا بعض «لكن» هذه؟

جواب: يجب التنبه، فلا ندعي العصمة لمن نحب، والخطأ المطلق لمن نكره، فقد يتغير الحال، فيصبح من نحب عدواً، ومن نعادي صديقاً.

هناك مشكلة أو عقدة أحب أن أطلق عليها «محبة التعميم»، وأكثر من يقع فيها طلبة العلم، في الفهم وفي الاستعمال.

وأذكر واقعة فيها بعض الطرافة: كنت أحدث بعض طلبة الدراسات العليا، عن عقدة التعميم في الفهم حيناً والاستعمال أحياناً، فطلبت منهم التفكير في قوله تعالى، وهو يصف بلقيس، ملكة اليمن، حيث قال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ.... ﴾ (النمل:٢٣)، قلت: هل كانت تملك سيارة أو تلفزيون، وهل كانت تأكل «الكاتاكي» وتشرب «البيبسي»؟ ضحك الطلاب واستغربوا وقالوا: من أين جاءك هذا؟ قلتُ: من لفظ ﴿كُلِّ شَيْءٍ... ﴾، فهو عام شامل، تساءلوا: وما الحل؟ قلت: أفهم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يكون لملك في ذلك الزمان والمكان، فيخصص العام.. قالوا: نريد أمثلة أخرى، قلت: شخص يقول: عندنا بقالة فيها كل شيء،

وصيدلية فيها كل شيء، فهل نجد في البقالة أدوية؟ وهل نجد في الصيدلية سمكاً ولحماً وخضاراً؟

وهـذا مثال، ولكن مختلف: فلو جاء نص من عهد الخلفاء الراشدين، أو من العصر الأموي يقول: فلان يملك حائطاً، أو اشترى حائطاً، أو وهب حائطاً، فالحائط في هذه النصوص يعني (بستاناً)، لكنه فيما بعد صار يطلق على الجدار، إذن لا بد أن نعرف النص وإلى أي عهد يعود، كي نفهمه فهماً سليماً، فهنا تدخل (العرف) فغير المفهوم من البستان إلى الجدار. وأنتم هنا تقولون: فلان جاء (وصيفاً) وتعنون أنه حضر متأخراً، ولو سمع أحد من العرب غيركم ذلك لم يفهم منه إلا أن هذا الشخص يلبس ملابس الصيف، فهذا استعمال أساسه العرف المحلي.

وعودة إلى د. برهان غليون فهو يشن حملته ليس ضد الأمة كلها، ولكن ضد من يتجهم للتراث، فيرى فيه السبب الأكبر للتأخر، ولذا يطالب بشطبه والتخلص منه، بل هو أيضاً ينعي على من يتغنى بالتراث، ولا يستفيد منه، والمطلوب، كما يكرر غليون، دراسة التراث ونقده، واستثمار الجيد منه- وما أكثر ذلك - وعزل السيء واستبعاده، فليُفهم كلامُه في هذه الحدود.

مكونات المجتمع

في كل شعب وأمة يوجد حكماء وحمقى، جادون وعابثون، عقلاء ومجانين، علماء وجهال، فإذا أراد الله بالأمة خيراً صار أمرها إلى ذوي العقل والحكمة فيها، وإذا أراد الله بها شراً استلم قيادها شرارها، فأوردوها المعاطب والمهالك.

والمال عصب الحياة قد يوجد بأيدي أهل السخاء والكرم فينتفع منه خلق كثير، وقد يكون بأيدي أهل الشح والبخل فلا يستفيد منه حتى صاحبه.

والأحنف بن قيس حكيم من حكماء العرب، يصفه بعض من رآه فلا نجد فيه صفة كمال ولا جمال، ولكنه يملك عقلاً لا مثيل له، علماً وحلماً ودقة نظر، يقول في بعض جواهره: «لا يَتِمُّ أَمْرُ السُّلْطَانِ إلاَّ بِالْوُزَرَاءِ وَالأَعْوَانِ، وَلا يَنْفَعُ الْوُزَرَاءُ وَالأَعْوَانُ إلا بِالْمَوَدَّةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَلا تَنْفَعُ الْمَوَدَّةُ وَالنَّصِيحَةُ إلاَّ بِالرَّأْيِ وَالْعِفَّةِ»[1].

وعن هذه المشكاة يقول الخليفة الراشد عمر ﷺ: «لا إِسْلامَ إلا بِجَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إلا بِإِمَارَةٍ، وَلا إِمَارَةَ إلا بِطَاعَةٍ»[2].

(١) سير أعلام النبلاء، ٤/٩٥.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه.

سؤال: من أين للأحنف ولعمر ﷺ هذا الفقه الرائع؟

جواب: بعضه من صفاء الفطرة والبعض من التعلم، فمن المعروف أن قبيلة عمر ﷺ في الجاهلية كانوا يقومون في السفارة بين القبائل فيصلحون ما فسد من العلاقات، وهذا العمل يتطلب معرفة جيدة، وإلا عجز الإنسان عن الإصلاح، وبعد ذلك وفوق ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة:٢٨٢)، إن عمر ﷺ ذلك العبقري كان تلميذاً جيداً لصاحب الرسالة ﷺ، فلا عجب إن صدر عنه ما صدر.

وما دمنا في «الحِكم»، وتراثنا مشحون بها شحناً، فلا بأس أن نذكر ولو بعضاً من هذه الجواهر.

لقد ذكر أبو حيان التوحيدي في موسوعته الرائعة «الإمتاع والمؤانسة» وهي اسم على مسمى، وقد قام الكاتب المعروف أحمد أمين بتحقيق الكتاب وضبطه فأجاد وأفاد، يقول أبو حيان[1]: جاء رجلٌ حاتمَ الزاهد بنميمة، فقال له: يا هذا، لقد أبطأت عني ثم جئت بثلاث جنايات: بغضت إلى حبيب، وشغلت قلبي الفارغ، وأعلقت نفسك التهمة، وأنت آمن.

قضية صغيرة يتداولها وتناولها أكثر الناس، يذكرون الناس بالشر، وينقلون أموراً سيئة تفسد العلاقات الإنسانية، يستصغرها الناس، فيسقطون بها، وقلَّ من ينجو منا، ولكن هذا الزاهد الكبير أراد أن يلقن هذا النمام وكل من على شاكلته درساً قاسياً، فجعل للنميمة ثلاث جنايات، أولها كره ذلك الذي نُقل

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٢/١٢٠.

عنه الكلام، وإشغال نفس من سمع بما سمع، وحصول التهمة لذلك الناقل؛ ورب كلمة تقول لصاحبها: «دعني».

ومن هذه المشكاة يقول يحيى بن معاذ[1]: «العلم قبل العمل، والعقل قائد الخير، والهوى مركب المعاصي، والمال داء المتكبر».

كلام فيه رائحة الوحي، أليس كذلك؟!

وهذا الثوري يتعوذ من أمور فيقول[2]: «نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر، وفتنة القائد الجاهل».

فالعالم الفاجر يمكن أن يحل الحرام، أو يحرم الحلال، ثم يفلسف ذلك ويعرضه بثوب جميل.

أما القائد الجاهل فيورد أمته الهلاك، يسوقها لحرب لا يعرف لها هدفاً، ويشتري عداوة أقوام هو في غنى عنها، ويبذر أموال الأمة، وهي بحاجة إلى القروش القليلة، إنه فاجعة تنزل على الأمة، وقد يخرج هو منها سليماً معافى، والشكوى لله أولاً وأخيراً.

ولعل من أجمل ما قاله الثوري: «الْعَالِمُ طَبِيبُ الدِّينِ، وَالدَّرَاهِمُ دَاءُ الدِّينِ، فَإِذَا اجْتَرَّ الطَّبِيبُ الدَّاءَ إِلَيَّ نَفْسِهِ، فَمَتَى يُدَاوِي غَيْرَهُ؟»[3].

---

(١) المرجع السابق، ١٢٣/٢.

(٢) المرجع السابق، ١٨/٢.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

نعم العلم طب الدين والحياة، وأما المال - في بعض استعمالاته - فداء ومرض، ولا أدل على ذلك من قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ (الأنفال:٢٨)، ويتكرر هذا المعنى في سورة التغابن (الآية:١٥)، فإذا دخل حب المال سويداء القلب وسيطر على الإنسان، فإنه يصبح مثل جهنم لا يشبع، ويظل يصرخ: هل من مزيد، فإذا صار للمال هذه القوة والسلطان، صار الإنسان عبداً وخادماً له، يجمع ولا يبالي من أين يجمع، فيفسد دينه ويفسد حياته، وصدق صاحب الرسالة ﷺ وهو يذم هذا النفر فيقول: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ...»[1]، وما أكرم الإنسان وهو مترفع، يجعل المال خادماً له ولأهله وبلده، وما أشقاه وأتعسه، وقد صار عبداً للمال، وسخر نفسه وكل قواه لجمعه، دون أن ينظر من الحلال أم الحرام أخذه.

ومثل هذا يحتاج لطبيب نفسي يعالجه، فكيف يكون طبيباً ومعالجاً، وفاقد الشيء لا يعطيه؟!

وقد جمع شاعر بعض هذه المفارقات فقال:

لا خير في وطن يكون المال عند بخيله

والسيف عند جبانه

والحكم عند دخيله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق.

وقد استتب قليله بكثيره

ظلماً وذل كثيره لقليله

مأساة كبيرة، وخلل في الحياة، ليس فوقه خلل، وكارثة بحكم زلزال مدمر، نسأله تعالى العافية.

جاء رجلٌ يستشير محمد بن أسلم، فقال: «لي بنت أريد أن أزوجها، فمن تشير؟ قال: لا تزوجها عالماً مفتوناً، ولا كاسباً كاذباً، ولا عابداً شاطاً»[1].

وأختم هذا الحديث بمقولة لحاتم الزاهد، إذ يقول: إذا رأيت من أخيك عيباً، فإن كتمته عليه فقد خنته، وإن قلته لغيره فقد اغتبته، وإن واجهته به فقد أوحشته.

سؤال: لقد وُجه السؤال لحاتم: ما العمل وكيف أصنع؟

فقال: تُكني عنه، وتُعرِّض به، وتجعله في جملة الحديث.

حكم؛ أرجو أن لا يقول البعض: لقد شبعنا من الحكم والمواعظ، وما ينقصنا هو حسن التطبيق، فاجعل اللهم ذلك من نصيبنا.

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٢/١٢٤ .

من فقه عمر ﷺ

قدمت مقولة للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ، يقول فيها: «لا إِسْلامَ إلا بِجَمَاعَةٍ، وَلا جَمَاعَةَ إلا بِإِمَارَةٍ، وَلا إِمَارَةَ إلا بِطَاعَةٍ»[1].

هذا البناء المتكامل، وجدت د. برهان غليون ينسج على منواله في كتابه القيم (الدولة والدين)، فيقول[2]: «إن هدف الدين - وهو يعني الإسلام - هو بناء الجماعة الأهلية، أي بناء الإنسان، فيما وراء الدولة وقبلها وأمامها وبعدها، ولا دولة من دون جماعة، ولا سياسة من دون دين، أي من دون مستودع وخزان رئيسي للقيم الإنسانية والمثل والفضائل الأخلاقية، ولا يحسن بنا تبذير المكانة والقيمة والثروة الروحية، التي تنبع من الدين، وليس لها حتى الآن، ولن يكون لها مصدر آخر، في الممارسة السياسية والقانونية اليومية، أي في تحقيق سلطة هذه الفئة أو تلك وبناء هذه الدولة أو تلك، بل أكثر من ذلك فإن تحوّل الدولة إلى دولة قومية، أي خاضعة للمجتمع، وغير مفصولة عنه وخادمة له، ليس له ضمانة إلا تمتع المجتمع بلحمة أهلية، ليست نابعة

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه.

(٢) الدولة والدين، ط٢، ص٤٥٤.

من الدولة ولا مرتبطة بها، أي تابعة لمصدر توحيد إضافي، يُقويّ من موقفه ومن عزيمته معاً، في وجه سلطان الدولة».

هذا التصور للدين ومكانته يرفضه بعض أبنائنا؛ لأن آخرين خلف البحار فعلوا ذلك، وإن اختلف الدين واختلفت الأمة، وهذا يذكرنا بقياس يقول: أنت تتنفس، والبقرة تتنفس، فتكون النتيجة: أنت بقرة.

ليس كل ما حصل في مكان يصلح ليعمَّم على أي مكان، فهناك قضايا موضوعية تخص الدين مثلاً كما تخص الشعب، وقد قلدت أمتنا كثيراً من الأمم في الغرب، وما زالت تقلده، والنتيجة حرث في البحر أو قبض للريح.

قانون الحياة صارم، وسنن الكون لا تحابي أحداً، فمن جد واجتهد واستحق الريادة والقيادة، دانت له، فإن تكاسل أو تجاهل، خسر القيادة وصارت لغيره، حتى ولو كان كافراً؛ قيادة العالم ليست حكراً على أحد ولو كان شعب الله المختار، فعدالة الله تأبى أن يقود من ليس أهلاً للقيادة، وأن يترأس العالم من ليس أهلاً للرئاسة، ومن السنن الكبرى أن لا يبقى القوي قوياً أبد الدهر، ولا الغني غنياً أبد الدهر، فالفقير يغتني، والغني يفتقر، والقوي يضعف، والضعيف يتقوى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠)؛ سنة التداول هذه تنادي: أيها الضعيف لا تيأس، فمجال القوة مفتوح؛ أيها المغلوب لا تيأس، فمجال الغلبة أمامك مفتوح؛ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون،

وفي «الناعورة» درس كبير، ففي كل دورة تصل الأواني، التي كانت في الأسفل إلى الأعلى، فتصب ما فيها من الماء، وفي نفس الدورة تهبط الأواني، التي كانت في الأعلى لتصير في الأسفل، وهكذا يعمل دولاب الكون، صعود دائم، وهبوط دائم، ودورة متواصلة.

في تراثنا تجارب؛ وهذه «درة» أختم بها.

فقد نقل الذهبي أن أبا جابر قال: «أقبل يزيد بن عبد الملك بن مروان قاصداً مجلس (مكحول) فهم منا أن نوسع له، فقال - أي مكحول -: دعوه، ليتعلم التواضع»[1].

درس في التواضع، كثيراً ما نحتاج مثله وأمثاله في حياتنا؛ ويقدم على مجلسٍ شخصٌ كبير، فينادي بعض من في المجلس: وسعوا للشيخ، إن درس في احترام الكبير وتوقير ذي الشيبة، والله الموفق.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٥/١٥٠.

في مصادرة التراث

التراث قوة معنوية، ربما كان مصدرها قناعة الأمة به، وبالحاجة إليه، لذا يكون من السذاجة بمكان أن يتصور أحد أنه يمكن شطب التراث بقرار سياسي أو غيره، والذين يحاربون التراث سيجدون أنفسهم في مواجهة مع الأمة، كما سيجدون أنفسهم خارجها وبعيداً عنها.

وقد وجدت خاتمي يسترسل في شرح ذلك فيقول[1]:

«... لا يمكن مصادرة التراث، أو القضاء عليه بقرار يصدره أهل الفكر أو السياسة؛ لأن التراث أعمق بكثير من ذلك، ولذا لا يقضى عليه بهذه السهولة، ونظراً لتأصله وتجذره في أعماق روح الأمة والمجتمع، فإن الصراع غير المدروس معه، من الممكن أن يقود إلى مضاعفة المعضلات الاجتماعية.. إذن لا يمكن القضاء على التقليد بسهولة، كما لا ينبغي أن نُقدم على مثل هذا العمل الخطير دون دراسة، إذ لا بد من النظر إلى التراث باعتباره أحد الأسس الأصلية لهويتنا التاريخية، وعلينا أن لا نفرغ المجتمع من هويته بذريعة التحديث، وهذا لا يعني التسليم التام مقابل التراث، لأن التراث؛ كالحضارة شأن بشري يستحق التغيير».

---

(١) مطالعات في الدين والإسلام، ط١، ص٧٣.

فالتراث يمثل جهد الإنسان، ولأن الإنسان ليس كاملاً ولا معصوماً، ولذا فما ينتجه لن يكون معصوماً من الخطأ، لكن وفي نفس الوقت لن يكون كله خطأ في خطأ، كما يريد البعض أو يشتهي، لذا ليس مصيباً من يعتبر كل ما في التراث نافعاً ومفيداً يجب التمسك به، ولا من يريد حرقه كله بحجة التحضر والتقدم، والدخول في حضارة اليوم.

هذه اليابان تحضرت وتقدمت دون أن تتنكر لتراثها، ولا إلى لغتها، وهي من أصعب لغات العالم.

سألت يوماً أستاذاً جامعياً يابانياً -كان يدرس في جامعة الملك سعود-: يقال إن في لغتكم أكثر من ثلاثة آلاف بين حرف وصورة، وإن ضبط «الإملاء» من المعضلات؟! فتبسم الرجل وقال: بل الموجود يزيد على عشرة آلاف.. ومع ذلك فالياباني من أكثر الناس تمسكاً بلغته وعاداته.. وهذه إسرائيل، حين قامت نبشت القبور لتخرج منها اللغة العبرية الميتة، ولتجعلها اللغة الرسمية لها، أما التراث اليهودي، حتى العنصري منه فقد أحيته، واليوم يدرس الشاب اليهودي ما قاله ملك العنصرية «موسى بن ميمون» الأندلسي، قبل قرون، وهو المعتمد في الدراسة، فهل يكفي ذلك بعض أبنائنا أم على القلوب أقفال وأقفال؟!

أنتقل إلى «الهمّ» الثقافي، فحين نهضت أمتنا، طلب الكل العلم، من الوزير إلى العبد والجارية، وسجل تاريخنا الثقافي وقائع تصور ذلك «العشق» للعلم وأهله، ليس من الكبار بل من الصبيان أيضاً، فهذا أحدهم وهو

ابن ست سنين يكتب الحديث، ويتنقل بين العلماء، ويجلس للتعلم قبل أن تنبت شعرة في وجهه.

يذكر الذهبي في ترجمته «للإسماعيلي»[1]: أنه ولد عام سبع وسبعين ومئتين، وكتب الحديث بخطه وهو صبي صغير، قال في معجمه: كتبت في صغري «الإملاء» بخطي في سنة ثلاثة وثمانين ومئتين، ولي يومئذٍ (ست سنين)، ونقل من سمع منه أنه لما ورد نعي محمد بن أيوب الرازي، قال: بكيت وصرخت، ومزقت القميص، ووضعت التراب على رأسي، فاجتمع عليّ أهلي وقالوا: ما أصابك؟ قلت: نعي إليّ محمد بن أيوب الرازي، وقد منعتموني الارتحال إليه، فأذنوا لي في الخروج إلى (نَسا) حيث الحسن بن سفيان.

يقول الإسماعيلي: ولم يكن هاهنا شعرة، يشير إلى وجهه.. وقال: خرجت إلى العراق سنة ست وتسعين، في صحبة أقربائي، أي حين كان عمره ست عشرة سنة، وسمعه حمزة السهمي يقول: كتبت بخطي عن أحمد الدامغاني إملاء في سنة ثلاث وثمانين، أي حين كان ابن ست سنين.. قال حمزة السهمي: سألني الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل ابن الفرات بمصر عن الإسماعيلي وسيرته وتصانيفه، فكنت أخبره بما صنف من الكتب، وبما جمع من المسانيد، وتخريجه على «صحيح البخاري»، وجميع سيرته، فتعجب من ذلك، وقال: لقد رزق من العلم والجاه والصيت الحسن.. وكان حمزة يقول: لقد كان الإسماعيلي مقدماً في جميع المجالس، وكان إذا حضر مجلساً لا يقرأ غيره».

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٦/٢٩٢.

إن أمة يكتب صبيانها، ويجلس للعلم والإملاء شبابها، ويسأل وزيرها في مصر عن عالم في طاشقند، هذه الأمة أخذت القيادة عن جدارة ولم يتصدق بها أحد عليها.

كنت أحدث طلبتي عن طالب علم اسمه «أسد بن الفرات»، أحب العلم فرحل من القيروان إلى المدينة، ليتلقى العلم من عالمها مالك بن أنس، رضي الله عنه، فلما استوعب ما عنده سأل: أين أجد العلم الذي أريد، فأشار الناس عليه أن توجه إلى بغداد، فرحل وحل في بغداد فوجد محمد الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، وحامل علمه، يقول أسد: جلست في الحلقة، وإذا عدد الطلبة كثير، فراح يشكو إلى أستاذه وشيخه قائلاً: أنا رجل غريب، والطلبة حولك كثير، فماذا أعمل؟ يرد محمد بن الحسن: تجلس مع العراقيين نهاراً، وأجعل لك الليل وحدك، يقول أسد: فإذا أطل الليل توجهت إلى دار الشيخ فيحضر ويضع بين يديه إناءً فيه ماء، فإذا درست وتعبت ونعست، نضح وجهي بالماء، فمازال ذلك دأبه ودأبي حتى أتيت على ما عنده من العلم.

أقول لطلبتي مازحاً: أريد طالباً كأسد بن الفرات اليوم، فيردون: شرط أن تجد لنا مدرساً كمحمد بن الحسن.

ذهب الزمان بحاتمٍ وبرهطه، والشكوى لله تعالى وحده.

العلم وخلفاء الدولة العباسية

كان خلفاء بني العباس يحبون العلم والعلماء، وكان على رأس متعلميهم ومثقفيهم الرشيد والمأمون. فقد دفع الرشيد بولديه الأمين والمأمون إلى بعض العلماء والمؤدبين لتعليمهم وتربيتهم، وهذا لا جديد فيه، ولكن الجديد تلك الرسالة، التي كتبها الرشيد إلى عالم من علماء عصره يقول فيها[1]: «يا أحمر - الأحمر النحوي المعروف- إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، وكن له حيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروّه الشعر، وعلّمه السنن، وبصره بمواقع الكلام، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، وارفع مجلس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وَقَوِّمْهُ ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما معليك بالشدة والغلظة».

إن الرشيد يرسم سياسة تربوية واضحة كل الوضوح، وأزيد على ما تقدم، ما ذكره الكاتب العباسي المشهور، «القاضي الفاضل» فهو يقول[2]:

---

(١) أحمد فريد الرفاعي، عصر المأمون، ط٢، ١/١٧٤.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ط٢، ص٩٤.

«ما أعلم أن لك رحلةً قط في طلب العلم إلا للرشيد، فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع "الموطأ" من الإمام مالك، وعلى سنة الأب سار الابن، وقديماً قيل:

بأبه عدي اقتدى في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

فقد نسج المأمون على منوال الرشيد، فراح يوجه أحد أولاده فيقول[1]:

اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من الوزراء ومن خاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، فمن اتبع منكم «صغار الأمور» سيتبعه التصغير والتحقير، وكان ما يفتقد من كبارها أكبر من كثير مما يدرك من صغارها، فترفعوا عن دناءة الهمة، وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير، واستكفوا الثقاة، وكونوا مثل كبار السباع، التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبيرها، واعلموا أن إقدامكم إن لم يتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم، ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه».

تربية وتعليم ألتمس فيها روح الرشيد وتطلعه.

واستذكر هنا ما قاله حكيم وحليم العرب «الأحنف بن قيس» [2]:

«لا يَتِمُّ أَمْرُ السُّلْطَانِ إلاّ بِالْوُزَرَاءِ وَالأَعْوَانِ، وَلا يَنْفَعُ الْوُزَرَاءُ وَالأَعْوَانُ إلا بِالْمَوَدَّةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَلا تَنْفَعُ الْمَوَدَّةُ وَالنَّصِيحَةُ إلاّ بِالرَّأْيِ وَالْعِفَّةِ»[3].

---

(١) عصر المأمون، ١/٣٥٨.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٤/٩٥.

(٣) سير أعلام النبلاء، ٤/٩٥.

واستسمح القارئ في أن أعرج على الخواجة «فرانك أنلو»، لأقتطف كلمة من كتابه القيم (القيادة والتغيير)، فقد رتب أفكاره ترتيباً يثير الدهشة إذ يقول[1]: «راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات؛ راقب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً، راقب أفعالك فإنها تتحول إلى عادات؛ راقب عاداتك فإنها تصبح طباعاً، راقب طباعك فإنها ظلال مصيرك»..

ومن الخواجة «أنلو» إلى العبقري الشجاع «الحسن البصري» فقد كتب إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنهما، قائلاً: «...من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر إلى العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم عَلِم، ومن عَلِم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فاقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فامسك».

كلام رجل يعرف ما يريد، يعشق الخير ويدل عليه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يجامل في الحق، ولا يهادن الباطل، قد جعل الدنيا وما حوت خلفه، واستشرف للجنة وما حوت، يقدر للكلمة قدرها، وللموقف قيمته، عاش رافع الرأس ومات عالي الجبين، منتصب القامة، لم يخف من أحد ولو كان مثل الحجاج في طغيانه وجبروته. فرحمة الله عليك يا شيخ البصرة، فما أحوجنا اليوم إلى أمثالك في حسن الفهم وشجاعة القلب، وحسن التصرف، والإقبال على الله تعالى وما عنده.

---

(١) القيادة والتغيير، ترجمة بشير الجابري، ص٢٨.

في حياة أمتنا رجال حازت شعبية لا مثيل لها، يتحدث الذهبي عن أحد شيوخ الحنابلة[1] في القرن الرابع الهجري والذي عاصر حركة القرامطة، الذين ثاروا على الدولة العباسية فعجزت عن السيطرة عليهم، وكان أن توجهوا للكعبة فقتلوا الحجاج واقتلعوا الحجر الأسود وأخذوه، وكان الخليفة العباسي يعتذر بقلة المال لمحاربة القرامطة.. فقال الشيخ «البربهاري»: يا قوم، إن كان يحتاج إلى معونة مئة ألف دينار ومئة ألف دينار (يكرر ذلك خمس مرات) عاونته في ذلك.

ويعلق الفقيه الحنبلي «ابن بطه» فيقول: لو أرادها لحصلها من الناس.

شعبية لا أشك أن الخليفة العباسي كان يتمنى نصفها أو ربعها. وبالمناسبة فقد رأت أم الرشيد العباسي جمهوراً كبيراً يسير خلف أحد العلماء، حتى ثار الغبار، فسألت: من هذا؟ فقيل لها: إنه ابن المبارك، فقالت: هذا والله المجد، لا مجد الرشيد، يسوق الناس بالعصا.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٩١/١٥.

عفّة الشيخ الطبري

جميل ورائع أن يكون الإنسان كريماً، فيعطي مما أعطاه الله تعالى، وربما كان أجمل من ذلك وأروع أن يكون الإنسان متعففاً، وخصوصاً إذ كان من رجال العلم والشريعة، تذكر لنا كتب التراث أن شيخ المفسرين والمؤرخين الطبري غادر بلده متوجهاً إلى بغداد، وهي يومذاك قبلة طلاب العلم، ومكان تجمع العلماء، ولأنه غريب يدخل العاصمة لأول مرة، لذا سقط طُعمة سهلة بأيدي بعض لصوص العاصمة، فأخذ ما معه من متاع؛ فماذا يفعل؟

أشار عليه بعض من يعرفه بأن يتولى تأديب وتعليم بعض أبناء الوزراء كي يعيش ويواصل تعليمه، فماذا يفعل؟

لقد جاء يطلب العلم ويخشى أن تضيع أوقاته في تعليم غيره، فماذا يفعل؟

أترك للشيخ الذهبي وصف ذلك، والإجابة عن كافة التساؤلات، فقد كتب قائلاً[1]: أن أبا جعفر الطبري لما دخل بغداد كانت معه بضاعة يتقوت منها فسرقت منه، فأفضى به الحال إلى بيع ثيابه وكمي قميصه، فقال له بعض أصدقائه: أتنشط لتأديب بعض ولد الوزير ابن خاقان؟

قال: نعم.. فمضى الرجل، فأحكم له الأمر، وعاد فأوصله إلى الوزير، بعد أن أعاره ما يلبس، فقر به الوزير ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير

---

(١) سير أعلام النبلاء، ١٤/٢٧١.

في الشهر، فاشترط - أي أبو جعفر- عليه أوقات طلبه للعلم والصلوات والراحة، وسأله إسلافه رزق شهر ففعل، وأدخل في حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي، فلما علمه الكتابة أخذ خادم اللوح، ودخلوا مستبشرين، فلم تبق جارية إلا أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فرد - الطبري- الكل وقال: قد شُورطت على شيء، فلا أخذ سواه، فعلم الوزير ذلك، فأدخل عليه فسأله، فقال: هؤلاء عبيد، وهم لا يملكون، فعظم ذلك في نفس الوزير. وكان ربما أهدى إليه بعض أصدقائه شيئاً فيقبله ويكافئه أضعافاً، لعظم مروءته».

سؤال: واضح أن الطبري لا يملك شيئاً، وما قدم له هدية وليست رشوة، فلماذا رفضها، بينما يتقبل هدية الأصدقاء؟

جواب: لا أجد تعليلاً سليماً سوى «التعفف»، فهو في مثل هذا الموقف غير متهم، ولو أخذ ما قدم له فلن ينكر عليه أحد، لكنه حيث يترفع فلا يقبل الهدية، فإنه يبرز سلوك العالم العفيف، الذي اضطرته صروف الدهر للعمل مؤدباً، وقد جاء يطلب العلم لا الكسب.

قضية أخرى: حين تشيع روح الجهاد في الأمة يستأسد حتى الصبيان، ويتطلعون للشهادة، ويشاركون في المعارك، بفدائية لا تناسب أعمارهم، لقد شهد معركة بدر الكبرى شباب رد رسول الله ﷺ بعضهم لصغر سنه، وقد أخرج البخاري فيمن شهد بدراً، قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه[(١)]:

«إِنِّي لَفِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، إِذْ الْتَفَتُّ، فَإِذَا عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَتَيَانِ حَدِيثَا السِّنِّ، فَكَأَنِّي لَمْ آمَنْ بِمَكَانِهِمَا، إِذْ قَالَ لِي أَحَدُهُمَا سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ،

(١) أخرجه البخاري؛ انظر: سير أعلام النبلاء، ١١/١٦٠.

يَا عَمِّ، أَرِنِي أَبَا جَهْلٍ؛ فَقُلْتُ: يَا ابْنَ أَخِي، وَمَا تَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: عَاهَدْتُ اللَّهَ إِنْ رَأَيْتُهُ أَنْ أَقْتُلَهُ أَوْ أَمُوتَ دُونَهُ؛ فَقَالَ لِي الآخَرُ سِرًّا مِنْ صَاحِبِهِ مِثْلَهُ؛ قَالَ -أي ابن عوف-: فَمَا سَرَّنِي أَنِّي بَيْنَ رَجُلَيْنِ مَكَانَهُمَا، فَأَشَرْتُ لَهُمَا إِلَيْهِ، فَشَدَّا عَلَيْهِ مِثْلَ الصَّقْرَيْنِ حَتَّى ضَرَبَاهُ، وَهُمَا ابْنَا عَفْرَاءَ».

ونحن اليوم نجد مثل ذلك في صبيان فلسطين، يُقتلون يومياً فلا يهابون ولا يخافون، بينما لا يجرأ عدوهم أن يبتعد عن دبابته أو آليته العسكرية، وصدق الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (البقرة:٩٦)، أيّ حياة مهما كانت، واليهودي في حرصه على الحياة سيظل جباناً حتى قيام الساعة.

وعودة للعلم والعلماء، فقد تناغم موقف الأمة، فهذا العالم يكتب كتاباً جيداً يحتفظ بأصله ويعيره للنسخ حتى يتداول.

وحين كتب أبو عبيد كتابه الرائع «غريب الحديث» عرض على أمير خراسان آنذاك فاستحسنه فقام بتخصيص راتب مجزي لكاتبه يدفع له مدى الحياة، حتى إذا مات دفع ذلك المال لأولاده من بعده، إنه التقدير العالي للعلم والعلماء، وهكذا تنهض الأمة وتسود.

كتب الذهبي قائلاً[1]: حين كتب أبو عبيد كتاب «غريب الحديث» عُرض على عبد الله بن طاهر، أمير خراسان، فاستحسنه وقال: إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب، لحقيق أن لا يحوج إلى طلب المعاش، فأجرى له عشرة الآلف درهم.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٤٩٥/١٠.

وتتمة للخبر: لما مات ابن طاهر، كان إسحاق بن إبراهم يدفع ذلك لأبي عبيد، حتى إذا مات صار ذلك لأولاده، علماً بأن ما تحتاجه عائلة متوسطة هو (درهم يومياً)، وقد كان راتب بعض رجال الحديث نصف درهم لا أكثر، فتخصيص مبلغ عشرة آلاف درهم كثير جداً، وعطاء فيه كرم، بل كرم كبير، ولكن ليس فيه إسراف، فلا إسراف في العلم، ولا لأهله.

إذاً لنبق في العلم والعلماء، فقد كان طاهر بن عبد الله بن طاهر ببغداد، فكان يطمح أن يسمع من أبي عبيد بن سلام الحديث، وكأمير ابن أمير أراد أن يأتيه ابن سلام في منزله ليسمع منه، فرفض ذلك، بأن هذا ليس من أدب العلماء، حتى اضطر طاهر أن يذهب إليه ويسمع منه.

لكن الأمر يختلف حين يكون بين عالمين، فإن هذا الحرج يزول، إذ يحمل المؤلف كتابه ليزور رفيقه، ولا يرى في ذلك حرجاً. وفي هذا يخبرنا الذهبي أنه حين قدم علي بن المديني وعباس العنبري، وأحبا أن يسمعا «غريب الحديث» لابن سلام، راح يحمل كل يوم كتابه ويأتيهما في منزلهما، كل ذلك إجلالاً وتقديراً لعلمهما[1].

سؤال: لماذا هذه الحساسية وهذا التفريق؟

جواب: ربما كان هناك شبهة تزلف للحاكم، أما بين العلماء فلا شبهة، فالعلم نسبٌ، كما يقال، والعالم لا يتكبر على أخيه، ولا يتأبى أن يزوره في بيته ليقرأ له.

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٤٩٧/١٠.

ضرورة التشريع

كل مجتمع إنساني بشري يحتاج لضبطه وربطه إلى قيم شرعية إلهية إن وجدت، وإلا وضع لنفسه هذه القيم، حتى يستقيم أمره، وقد عالج ابن خلدون ذلك في مقدمته، مستقرئاً الموجود في زمانه، فقرر بكل وضوح ضرورة وجود التشريع كي تستقيم أمور الدولة والمجتمع، فإذا وجدت شريعة ربانية استقى منها، وإلا اجتمع العقلاء فوضعوا ذلك، من هنا يحلو للبعض أن يصف ابن خلدون بأنه (شيخ علماء العلمانية)، ولم يكن الرجل كذلك، بل لاحظ الموجود فوصفه وحكاه ليس إلا.

وقد وجدت د. برهان غليون يدرس حاجة المجتمع والدولة للقيم والهوية، فيرى أن المجتمعات العربية عموماً ما تزال تنظر للدين عموماً والإسلام خصوصاً على أنه المصدر الأول للقيم، إن لم يكن المصدر الوحيد، كذلك فهو المصدر للأخلاق أيضاً، والقيم والأخلاق هي ما تقوم عليه الحضارة، كما أن الإسلام يشكل المرتكز الأول للهوية، فإذا استُبعد الإسلام وهُمشت الأخلاق، فإن أفراد المجتمع ينتكسون إلى نوع من الهمجية لا رابط ولا ضابط، سوى القوة، فيدخل المجتمع في صراعات، ويصير القتل والسلب والنهب والعدوان سلوكاً يومياً، وعندها يمكن أن تصبح الجريمة اليومية مظهراً من مظاهر

الاحتجاج والاعتراض، ومتى وصل مجتمع إلى هذه الحالة فالحرب الأهلية هي الأقرب توقعاً، والأسوأ نتيجة.. يقول د. برهان غليون[1]:

«... في المجتمعات العربية، بشكل خاص لا يزال الدين عامة، والإسلام خاصة، هو المصدر الأول، إن لم يكن الوحيد للقيم الرمزية والتاريخية والأخلاقية، التي يقوم عليها بناء المدنية والحس الحضاري، والإسلام عملياً أهم متركز للهوية، شاءوا ذلك أم أبوا، فإذا افتقدوا الحوافز، التي يعطيها، والمثل التي يقدمها للأغلبية الشعبية الساحقة، لم يبق حاجة يمنع الكتل، التي ردت إلى حالة الصراع من أجل البقاء من التحول إلى جماعات «همجية» لا ضابط لها إلا مبدأ القوة والعسف، وسيتحول القتل والسرقة والنهب والسلب والعدوان إلى سلوك يومي شائع، كما لم يحصل في أي حقبة أخرى، وفي هذه الحالة يمكن أن تصبح الجريمة اليومية هي المظهر الأول للاحتجاج والاعتراض على النظام الاجتماعي، ذلك أن الفعل السياسي، سواء توشح بعقيدة دينية أو مدنية، يحتاج لا محالة إلى حد أدنى من الذاكرة الجمعية، واللغة المشتركة، والقيم المقبولة، والمراجع المستنبطة والغايات والمثل العليا، ولا ينبغي أن نعتقد أنه من الممكن للمدنيات أن تنظر بعيون غيرها أو أن تستبدل منظوماتها المرجعية، أي أن تبدل ذاكرتها، دون أن تفقد بالمقابل وحدتها الأصلية، وشوكتها التاريخية...

والثقافات والأديان والعقائد والنظم الكبرى ليست مصنوعة لفئات محدودة، صغرت أو كبرت، وهي لا يمكن أن تكون فاعلة في تحقيق المدنية،

---

(١) الدولة والدين، ص٥٨٠.

وتأمين سير النظام الاجتماعي، وفي المقدمة (السلم الأهلي)، إلا عندما تكون فاعلة بالنسبة للكتلة الساحقة».

والناظر فيما يقع في بعض البلاد، في دول العالم الثالث، يرى مصداق ذلك في كثير من البلاد في آسيا وأفريقيا، سقطت الدولة أو كادت، وقامت جماعات حزبية أو قبلية أو طائفية، استعملت السلاح أشنع استعمال، والإنسان يعجب لهذا الانحدار نحو القسوة والقتل الجماعي، فمن يملك السلاح يستعمله بكل طاقته، ثم لا يسأل عن النتائج، والقتل يجر للقتل، ومن هنا تكون الثارات، ومن سوء حظ البشرية أن تمتلك كل هذه الأسلحة، للقتل والفتك، ولا يكون القتل إلا لقلة، واليوم هناك القنابل الذكية والغبية، القنابل النووية والهيدروجينية، والصواريخ عابر للقارات، وأسلحة الدمار الشامل!!

سؤال: هناك مفارقة كبيرة، يتقدم الإنسان علمياً وحضارياً، وينتكس سلوكياً وخلقياً، أليس هذه مفارقة كبرى؟

جواب: التقدم العلمي والحضاري واضح للعيان، ولكن نحن كما قال المؤرخ البريطاني المعروف «توينبي»: لقد تقدمنا علمياً وحضارياً، ولكنا انتكسنا وسقطنا في الحروب العنصرية والقومية والطائفية، وكل أنواع الحروب.. وقد درس مستشار الأمن القومي السابق «بريجينسكي»[1] حال العالم في القرن العشرين، فسجل ملاحظة ذكية حيث قدر أن العالم يسير نحو التحضر والتخلص من الحروب وسفك الدماء، إلا أنه خاض من الحروب في القرن

---

(١) الفوضى، ترجمة مالك فاضل، ط١، ص٢٢.

العشرين ما يزيد على الحروب السابقة، وقد قدر ضحايا القرن بـ (١٦٧) مليوناً من البشر[1].. وقد درس الحروب الروسية، وعددها (ثلاثة عشرة) حرباً متصلة، ابتداء بالحرب اليابانية الروسية عام ١٩٠٥م، وانتهاء بحرب الشيشان، التي ما زالت مستمرة ومستعرة.

إن الإنسان طور علومه ومعارفه، في مختلف جوانب الحياة، ومن هذا ما صنعه من أسلحة فتاكة، لم يعرف لها العالم مثيلاً، في قوة دمارها وفتكها بكل الأحياء، ثم لم يواكب ذلك انضباط خلقي أو ديني، فصارت هذه الأسلحة كمن ملأ بيته بارودا، فلا يعرف متى ينفجر فيهلك كل من فيه، ومن حوله.

وهنا استذكر أن مستشرقاً سئل: عندما أخذنا القدس منكم لم نسفك دماً، وأخذناها صلحاً، فلما أخذتموها في الحروب الصليبية، جرت دماء المسلمين واليهود فيها، وحين دخلنا الأندلس وفتحناها كان ذلك بأقل تضحية، فلما قررتم استردادها طردتم ثلاثة ملايين مسلم، وقتلتم عن طريق الحروب ومحاكم التفتيش مئات الألوف، وقمتم بإغراق سفن براكبيها، فلماذا كل ذلك؟

فكان جوابه: نعم، كل هذا حصل، فقد كنا أمة بلا شريعة ولا قانون، وكنتم أمة صاحبة شريعة وقانون، تعتبر به وتلتزم به، وهذا هو الفارق بيننا وبينكم.. فالعالم بلا دين ولا ضابط عبارة عن سفينة في بحر هائج، بدون ربان، وإلى الله المشتكى.

---

(١) رقعة الشطرنج الكبرى.

طبيعة التراث

سؤال: يعتقد أنصار التراث بجودة كل ما يحويه؟

جواب: لا أحد يعتقد بأن كل ما حواه التراث، على مدى ألف عام ويزيد، كله جيد ومفيد، وقد وجدت د. محمد امزيان يتحدث عن ذلك في كتابه الجيد «منهج البحث الاجتماعي» فيقول: إن نظرتنا إلى التراث لن تكون نظرة إعجاب وتقديس، لكل ما يتصل بتاريخنا الثقافي، بل ننظر إليه نظرة نقدية واعية، متفحصة لمضامينه، فليس كل ثقافة نمت وارتبطت بالمسيرة الحضارية الإسلامية وتاريخها الثقافي، تعتبر بالضرورة ثقافة إسلامية، أو محسوبة على الإسلام، بكل ما تحمله من مضامين مناقضة ومتعارضة مع روح الإسلام.

إن الخطأ، الذي يقع فيه باحثون معاصرون، بدافع من الرغبة في إبراز أصالتنا الثقافية في هذا المجال، فإنهم ينظرون إلى الفكر الاجتماعي، الذي خلفته الحضارة الإسلامية نظرة سكونية تبجيلية، فلا يميزون بين ما هو إسلامي أصيل، وبين ما هو دخيل.

وهذه النظرة إلى تراثنا تنتهي به إلى كثير من التشويه، حيث تفضي الطرق عن مضامين ثقافية متعارضة، تجمع في كومة واحدة.

سؤال: في تراثنا أدب وفلسفة وتصوف، وجماعات باطنية، فما موقعها من التراث؟

جواب: أترك الجواب للدكتور أمزيان فهو يقول[1]: إن الركون إلى إظهار التراث الفلسفي أو الصوفي المنحرف، إضافة إلى التيارات الباطنية، كممثل للتراث الاجتماعي في الإسلام، فهذا الركون لن يؤدي إلا إلى عقم هذا العلم، وعدم قدرته على إعطاء الثمرة المرجوة منه.. إن محاولة تأسيس علم اجتماعي إسلامي على غرار ما ورد في المدينة الفاضلة، وأخلاقيات الفلاسفة، وتعاليم إخوان الصفا، لن تكون أكثر من حنين تاريخي لا قيمة له، في توجيه الدراسات الاجتماعية المعاصرة، ودفع عجلتها نحو التقدم، على اعتبار أن هذه المحاولات، ليست قواعد علمية ومنهجية، ولا تقرر حقائق اجتماعية بقدر ما هي خطرات فلاسفة وتصورات شخصية، لا تستمد نظرتها من الأصول الإسلامية، بقدر ما تخضع لقوالب فكرية غريبة عن البيئة الفكرية الإسلامية، وتصورات شخصية، لا تستمد نظرتها من الأصول الإسلامية، بقدر ما تخضع لقوالب فكرية غريبة عن البيئة الفكرية الإسلامية.

إن هذا التراث، الذي نشأ في البيئة الإسلامية، يبقى لوناً من «الترف العقلي»، لكنه لا يدخل في نطاق التفكير العلمي القادر على التوجيه والعطاء.

سؤال: إذن لمن كان التأثير في المجتمع الإسلامي؟

جواب: إن مراكز التأثير في توجيه الحياة الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي لم تكن تنبع من تصورات الفلاسفة ومثالياتهم وتأملاتهم، كما لم يكن لهؤلاء ذلك الدور الريادي، الذي يريد بعض الدارسين أن يثبته لهم، باعتبارهم

---

(١) منهج البحث، ص٤٠٥.

مصلحين اجتماعيين كالفارابي مثلاً، بل لم يكن لهؤلاء نصيب من هذا الإصلاح، اللهم إلا ما كان في الجانب السلبي ... وكذلك مثاليات الفلاسفة، ونزعات رجال علم الكلام، وجدالهم، الذي تعدى الجدل في العقيدة إلى مجال المحاكمات السلبية، فهي خير شاهد على الدور السلبي، الذي لعبته هذه الحركات جميعاً في توجيه الحياة الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي[1].

سؤال: هذا تصور جيد لا ينقصه الوضوح، والسؤال: لقد كان الغرب يؤمن بكثرة الثوابت، فتحول أخيراً إلى عكس ذلك، فما السبب؟

جواب: التطرف يجلب التطرف، والاعتدال يولد الاعتدال، لقد كان الغرب أيام تحكم الكنيسة، لا يرى في الحياة سوى ثوابت قائمة، وإن وجد متغير فقليل جداً، ومحكوم بالثابت، فجمدت الحياة قروناً، وجاء رد الفعل قوياً ليُنكر الثوابت، ويتمسك بالمتغيرات، وأترك للدكتور أمزيان توضيح ذلك إذ يقول:

إن المدارس الاجتماعية في سعيها نحو إنكار الثوابت كانت مدفوعة بظروف خاصة، ومحكومة بدوافع تاريخية واجتماعية، ترتبط بالبيئة الغربية الأوروبية، لقد تميز التاريخ الثقافي الأوروبي بالثبات والجمود على صيغ (دوغماتية متحجرة)، فكان من الطبيعي أن يتولد عن هذا الضغط المتزايد فكر مناقض له، يعادي الثبات، ويغض النظر عن التمييز بين ما هو ثابت وما هو متغير، وبعيداً عن ذلك، فقد كان النظام الكنسي يعادي كل تغيير وكل تجديد، مهما كان، وإذا كان لكل فعل رد فعل، فكان إنكار الثوابت هو الجواب على جعل كل ما في الحياة من الثوابت، يقول سيد قطب في ذلك:

---

(١) المرجع السابق، ص ٤١١.

إن الفكر الأوروبي في هروبه من الكنيسة، ورغبته الخفية والظاهرة في خلع نيرها، قد مال إلى نفي فكرة الثبات على الإطلاق، واستعاض عنها بفكرة التطور على الإطلاق، دون أن يستثني منها العقيدة والشريعة، بل كانت فكرة ثبات العقيدة والشريعة هي التي يريد التفلت منها.

إن فكرة التطور المطلق، الذي لا يتقيد بأي أصل ثابت ولا بأية قيمة ثابتة، ولا بأية حقيقة ثابتة، لم تكن حقيقة علمية، بل شهوة جامحة، وهوى شارداً، مبعثه الرغبة في التخلص من سيطرة الكنيسة.

إن هذا التوجه المنهجي، الذي سارت عليه «الوضعية» لم يكن صدفة، بل كان رد فعل قوي، يعبر عن خصوصيات الثقافة الأوروبية، والميثولوجيا الوضعية قامت في جو المعاناة وردود الفعل، ومن هذا المنطلق الانفعالي جرى تحديد النظريات الاجتماعية الوضعية موقفها من قضية القيم والمعتقدات والنظم، وهو الموقف الذي تميز بالتأكيد على نسبيتها، ونفي فكرة الثبات عنها، وإحلال فكرة التطوير والتغيير المطلق مكانها، إن لهذه النظرة انعكاسات خطيرة على الضبط الاجتماعي مثلاً، فسلوكيات الناس لم تعد تنضبط وفق قيم دينية وأخلاقية محددة، وصار من الممكن توجيه سلوك الناس بحسب قيم جديدة، وجلب الاهتمام إليها، والعمل في نفس الوقت على استبعاد قيم غير مرغوب فيها.. بينما يقر الإسلام بوجود ثوابت أساسية كالعقيدة والأخلاق والحق والباطل والفضيلة والرذيلة، وأما المتغير فهو العرف والتقاليد وما يعود إليهما في التشريع»[1].

---

(١) منهج البحث، ص٣٥٤.

مرجعية الأخلاق

سؤال: هناك تساؤل كبير عن مرجعية الأخلاق، هل المرجعية فيها الدين أم العقل؟ وهل يمكن اعتبار اللذة والنفع مقياساً لها؟

جواب: الأديان السماوية كلها تعتبر الدين هو المرجع الأساس للأخلاق، أما غير المتدينين فيجعلون العقل هو المرجع، ويجعلون الأساس فيها تحقق اللذة والمنفعة.

يتحدث د. عبد الوهاب المسيري في كتابه (فكر الاستنارة)، عما يسميه مشكلة المشاكل فيتساءل[1]: كيف يمكن للعقل في إطار العقلانية المادية أن يفرق بين ما هو أخلاقي وبين ما هو غير أخلاقي؟ فالعقل إذا كانت مرجعيته النهائية الطبيعة، أي المادة، وهو قادر على اكتشاف مبدأ السببية العامة في الأشياء، والدوافع الغرائزية في الإنسان، التي تؤكد الحتميات المادية الخارجية، وتنكر ضمناً استقلالية الإنسان وحركته، علماً بأن (العقل المادي المحض) يوجد داخل حيز التجربة المادية فحسب، وقد وصفه أحد المفكرين بأنه لا يشع نوراً، وإنما هو موصل جيد للنور أو الظلام، فهو مثل (الكمبيوتر)، يتعامل مع

---

(١) عبد الوهاب المسيري، فكر حركة الاستنارة، ص٥٧ .

المعلومات، يوظفها ويرتبها لكنه لا ينتجها، ولو أعطيته حقائق صماء ومتغيرات لا علاقة لها بالقيمة، فهو كأداة كُفأة قادرة على الملاحظة والتجريب والتفكيك، ورصد لما هو كائن، لكنّه يقف عاجزاً عن تزويدنا بما ينبغي أن يكون، وعن التمييز بين الخير والشر، ذلك أن مرجعيته النهائية هي الطبيعة، وهي محايدة حياداً رهيباً، بل قد تكون شريرة، فالخير حقيقة والشر كذلك، وكلا الاثنين حقائق..

سؤال: هذا تجريد جيد ونريد أمثلة على ذلك...

لنضرب مثلاً، فإن إبادة العجزة والمعوقين، وأفراد الأقليات، مسألة تحرمها كافة الأديان السماوية، فماذا لو حدث وأثبت أحد العلماء المستنيرين الجدوى الاقتصادية المادية في القضاء على هذا (الفائض البشري)، والذي لا فائدة مادية ترجى منه؟ وماذا لو كشف أحد البراهين والأدلة المقنعة أن إبادة هؤلاء تشكل عنصراً من عناصر التقدم، وعلاجاً ناجعاً لمشكلة تكاثر وتزايد السكان، مع محدودية المصادر الطبيعية؟ ألا يمكن تحديد النسل مثلاً بل تحسينه من خلال إبادة هؤلاء؟

ألا يمكن كذلك تحسين الإنتاج وتوفير الكثير باعتبار هؤلاء لا عمل لهم ولا إنتاج (كما قال النازيون الألمان)؟

إن إبادة مثل هؤلاء، من منظور اقتصادي طبيعي، محايد، أمر مفهوم تماماً، متى كانت المرجعية الوحيدة هي الطبيعة المحايدة، فهي لا تحابي أحداً،

بالإضافة لذلك فكل الحيوانات تترك المسنين والمعوقين من جنسها كي يلاقوا مصيرهم، فلا تحملهم معها، كما يفعل الإنسان، وماذا يمكن للعلم أو العقل أن يفعل مع هذا العالم النازي، الذي أثبت بالمنطق الرياضي الصارم وبالتجربة (أي بالعقل والحواس والمنطق المادي) أن قتل هؤلاء ومعهم جرحى الحروب واليهود والغجر سيوفر الكثير للاقتصاد الألماني؟ وقد قام بتجارب على التوائم، لا تعرف الرحمة أو الشفقة، فكان يضع طفلاً في غرفة، ويضع شقيقه التوأم في أخرى، ثم يخضع الأول لأشكال من التجارب العملية مثل تعذيبه أو تسخينه أو تبريده، ثم يقوم بقياس الحالة النفسية لأخيه!

والسؤال: هل يختلف هذا عن التجارب النووية وتجارب الأمصال الجديدة والتي تجري على البشر دون علمهم؟

لقد تراكم كم هائل من المعلومات من خلال التجارب النازية.

سؤال أخير: ما مدى مشروعية استخدام مثل هذه المعلومات والتي يجرى الحصول عليها بطرق شيطانية سرية ملتوية؟

وسؤال آخر: ماذا يمكن للعقل أن يفعل مع النظريات العرقية مثلاً والتي تنكر المساواة بين البشر، ثم تأتي بمعادلات رياضية عن معدلات الذكاء، ورسوم بيانية عن حجم الجمجمة، ومدى كفاءة عرق معين في إدارة الصراع مع الطبيعة والإنسان؟ وهل يمكن أن يستمر العقل في الإصرار على ضرورة المساواة بين البشر، خصوصاً بعد أن أنكر أصلهم؟

وأخيراً: أليس هذا نوعاً جديداً من الغيبية التي نهرب منها؟ ثم ماذا يمكن للعقل أن يفعل مع بعض العقليات، التي تقبل بنسبية الأخلاق وبحتمية الصراع، كنمط وشكل أساس في الحياة؟

وانطلاقاً مما تقدم، هل يمكن قبول قتل الآخرين وتدمير الأرض؟

جواب: إن العقل الحر والمستقل والذي لا تمده حدود أخلاقية أو إنسانية فهو يسخر العالم لمصلحته، بل يلتهمه التهاماً ويبدده، إنه عقل (أداتي) لا يدرك ماضياً ولا مستقبلاً، ولا يعرف مرجعاً معيناً، ولا غاية ولا هدفاً.

وأخيراً، فثمة علاقة أو مشكلة حول علاقة المعرفة بالأخلاق، فهناك معرفة تفرق بين الخير والشر، وهذا يختلف عن فعل الخير وتحاشي الشر، فالمعرفة عادة لا تتضمن (الإرادة الحرة)، أما الفعل الأخلاقي فهو يستند إلى مثل هذه الإرادة.

الإنسان بعد أن يعرف الفرق بين مصلحته الشخصية الضيقة، والمصلحة العامة، ويعرف أن تركيزه على مصلحته الضيقة يمكن أن يودي بالمجتمع ومصلحته، بل بالإنسان كفرد فيه، فكيف يمكن أن نقنع هذا الإنسان بالانتقال من المعرفة المجردة إلى الفعل الخلقي؟؟ إنها المشكلة (الهوبزية)، التي لا إجابة لها داخل المنظومة المادية.

هذا الدفع بالأخلاق بعيداً عن كل مرجع ديني، دفع بها باتجاه الأخلاق الجاهلية، كما يقول د. غليون، كما أصبحت مسؤولية الإنسان تنحصر في طريقة الأداء، فمتى ما أدى ما عليه من التزام فهو مواطن خير، وقد يكون هذا الأداء قائماً على قتل ناس وتعذيب آخرين، وسرقة أعضاء، بل نهب خيرات لشعوب فقيرة وكل ما تملك.. إن الضابط النازي (آيخما) ظل يردد خلال محاكمته في إسرائيل أنه ضابط في جيش دولة داخلة في حرب كونية، فإن رفض إطاعة الأوامر الصادرة إليه فهذا يعرضه للقتل، وإن نفذ هذه الأوامر فهو يحاكم ويهدد بالقتل، فماذا يفعل؟ وما يستطيع أمثاله أن يفعلوا؟ وفي كثير من بلدان العالم يقع الإنسان في هذا المأزق، فيفعل أشياء لا يؤمن بسلامتها، لكنه إن لم يفعل فإن نُظُم الدولة تستبيح دمة وتحكم عليه بالقتل، وربما طال ذلك أفراد عائلته.

البشر.. يساقون إلى أين؟

سؤال: الحياة والموت من السنن الكبرى لكل حي، ونقل عن البعض قوله: «نحن نساق بالطبيعة إلى الموت، ونساق بالعقل إلى الحياة» فما تفسير ذلك؟

جواب: هذا التفسير لدافع الموت والحياة، ينقله أبو حيان عن شيخه وأستاذه (أبي سليمان)، وبالمناسبة فهو ينقل عنه الكثير، وعن قناعة تامة، دون تزلف أو نفاق.

يقول أبو حيان: سمعت الشيخ أبا سليمان يقول: نحن نساق بالطبيعة إلى الموت، ونساق بالعقل إلى الحياة.

فما كان طبيعياً فقد أحاطت به الضرورة، وأما الذي بالعقل فقد أطاف به الاختيار، ولذا ينبغي أن نستسلم لأحدهما، ونتحزم للآخر، إذ لا يصح الاستسلام إلا بطيب نفس، وذلك فيما لا حيلة في دفعه، (فالإنسان والحيوان والنبات تموت) ولا يتم التحزم إلا بإيثار الجد والاجتهاد فيما لا ينال إلا به، وأما الضروري فلا يسعى إليه، لأنه واصل إليك.

الاختيار ينبغي أن لا يكسل عنه؛ لأنه غير حاصل لديك بالضرورة، فانظر أين تضع توكلك فيما ليس إليك، ومن أين تطلب ثمرة اجتهادك فيما هو متعلق بك.

يقول الشيخ: نحن نقضي ما علينا، ونجتهد بما لدينا، ويجري القدر بما شئنا أو أبينا.

الإنسان مسجون بالضرورة والاختيار، ومع ذلك فمعاده إلى غايته المتوجه إليها من جهة اختياره، ومتوجه كذلك من جهة اضطراره؛ الاضطرار يكون بما يصرِّف على وتيرتهما، والاختيار ينسب إلى الصورة، وأما الاضطرار فينسب إلى الأصل، والإنسان حقيقة وصورة.

وبسبب بعض الالتباس نجد (الصراخ والعويل)، واحتيج فيه إلى القال والقيل، والله المستعان.

ويمكن أن يضاف هنا أن الإنسان يعيش الحياة ويعرفها أو يتصور ذلك، وهو يخشى الموت وما بعده، وكلما كان صالحاً في دنياه قل خوفه، وكلما كان فاسقاً فاجراً زاد تخوفه.. سمعت رجلاً يقول لآخر في حوار وجدال: (جاءك الموت يا تارك الصلاة)، فطلب المحاور من صاحبه أن يعيد عليه المقالة، وتوقف، كأنه يريد أن يعقلها جيداً، ثم راح يكررها، والغريب أنها فعلت في نفسه فعل السحر، وبعد أن جاوز العقد الخامس ولم يصل يوماً، فقد توجه للصلاة، لقد دقت العبارة (ناقوس الخطر)، في وقت مناسب فاستجاب لذلك الرجل، ومثله كثير.

سؤال: نرى بعض الناس هيناً ليناً، في خلقه وسلوكه، ونرى أخاً له، ربما يعيش معه تحت سقف واحد، وقد تربيا في بيت واحد، هذا هين لين وذاك صعب فج مشاكس معاكس، فما تفسير ذلك؟

جواب: هذه حقيقة ملموسة، وقد نقل أبو حيان طرحها وأجاد، فهناك من يعتقد صعوبة تهذيب الخلق، وتزكية النفوس وتطهيرها، وأن هذا أمر في غاية الصعوبة، بل الوصول إليه محال، وهناك فريق آخر يعتقد أن المهمة سهلة، ويضرب أمثلة لذلك فيمن يريد نظافة بدنه، وتدليك أعضائه، وإماطة الأذى عن عيونه، أو تسريح شعره، فإن السبيل إلى ذلك سهل ميسر، حتى إذا خرج أحد هؤلاء من الحمام نقي الأطراف قد اكتسب صباحة ونظافة وخفة ظاهرة مما كان يلازمه من الأوساخ والأدران، لكنه لو أراد أن يغير في شكله وصورته ولو بشرته وعيونه، أو التلعثم في لسانه فإن الصعوبة تكون أكبر وأعظم، وأساس هذه القضية أن الأخلاق متى أريد تهذيبها وتسويتها وتعديلها، فثمة صعوبة واضحة، لكنها مع ذلك ممكنة في نفسها، في أشياء خاصة، ومواضع معلومة، ومع ذلك فلا ينبغي أن يطمع في الإصلاح كل الطمع، ولا يقطع الرجاء عن إصلاح الممكن منها كل القطع، فمن كان الجبن من طباعه، فمجيء الشجاعة منه بعيد، ومن طبع على الغيرة لم يمكنه أن يغفل عن ذلك، وكل من وجد في طبعه شيء فلا بد أن يظهر، وكذا من كان في قوته شيء فلابد أن يظهر، وهناك تجربة فارسية معروفة، فقد قام مدرب لبعض القطط بتدريبها على حمل شموع والدوران في المجلس، يبرهن أن التطبع قد يغلب الطبع، فما كان من شخص إلا أن يقوم بإحضار فيران، فإذا مشت القطط وبأيديها الشموع مشتعلة، رمى الفيران، فقذفت القطط بالشموع، وراحت تجري للإمساك بالفيران، وكأن الهدف أن يقال: غلب الطبع التطبع.

هذا تصور أو تصوير جيد للقضية، وأريد أمثله أخرى.

جواب: بعض الناس يسرق نظراً لحاجته، وهناك أغنياء في العالم يسرقون أشياء ليست ذات قيمة، ولا تساوي شيئاً بالنسبة لما يملكون.

أعرف شخصاً من هؤلاء كان يقول ويردد: أنا أعشق السرقة، فإن لم أجد ما أسرق، سرقت من جيبي الأيمن ووضعته في الجيب الأيسر؛ بعض الناس مولع في المبالغة، فإذا نبه لذلك حاول أن يبتعد، لكنه لا يلبث أن يعود متى نسي ذلك.

ومن الأمثلة، التي يذكرها (أبو حيان) أن في المجتمع من يمدح الجود ويحث عليه ويحسنه ويدعو له، لكنه لا يعرف الجود ولا يمارسه أبداً، وقد أجاد الشاعر صوغ مثل هذه المفارقة حين قال:

لولا المشقة ساد الناس كلهمو

الجودُ يُفقر والإقدام قتال

فلا أحد يزم الجود أو يعيبه، ولكن الجود له علة كبيرة، فإذا انفلتت اليد في العطاء فقد تكون النتيجة (فقراً أسود)، ومثل ذلك الشجاعة والإقدام، فقد تصل إلى حد التهور، فيدفع صاحبه حياته ثمناً لذلك، لكن في كل الأحوال من القباحة بمكان أن يكون السلوك بواد والقول بواد آخر، ومن هنا كان الاستهجان لمن يقول شيئاً، ويفعل عكسه: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف:٢-٣).

سؤال: ماذا عن كسب العلوم والمعارف، وأين موقعها؟

جواب: يتحدث أبو حيان عن ذلك فيقول: أما المعارف والعلوم فالإنسان يحصلها مما يشبه الخزانة، يرجع لذلك متى يشاء، ويستخرج ما يريد، فقوة الذاكرة تستودع الأمور، التي تستفاد من الخارج، أي من العلماء والكتب، أو من تلك التي تستثار بالفكر والروية من الداخل.

فجملة معارف الإنسان إما نظرية أو عملية، وهو قادر على الحصول عليها، متى بذل الجهد المناسب، وكان له القدرة على التعلم والاستيعاب... أما المقتنيات فإنه يروم منها ما يروم من تلك، فلذا يغلو فيها، كما يخطئ من الاستكثار فيها، حتى يتنبه بالحكمة إلى ما ينبغي أن يقتني من العلوم والمحسوسات، فيتجه نحو القصد في الأمور جميعاً.

سؤال: هذا عرض جيد، ولدي سؤال: لماذا يحرص الناس على طلب الممنوع والزهد في المباح؟

جواب: يرى (التوحيدي) أن ذلك بسبب أن الإنسان يطلب عادة ما ليس عنده؛ وغير المتوفر في خزانته، فيتحرك لاقتنائه وتحصيله، بحسب ميله إلى أحد الأمرين، أعني المعقول أو المحسوس، فإذا حصل عليه سكن من هذه الجهة، وعلم أنه قد ادخره، بحيث يمكنه متى رجع إليه أن يجده، هذا إذا كان مما يبقى بالذات، ثم تشوف وتطلع إلى جهة أخرى، وهذا دأبه إلى أن يعلم أن الجزئيات لا نهاية لها، وما لا نهاية له فلا طمع في تحصيله، بل لا فائدة في النزاع فيه وإليه، كما لا وجه لطلبه، سواء في المعلوم أو المحسوس.

وإنما ينبغي أن يقصد من المعلومات إلى الأنواع والذوات الدائمة الموجودة أبداً، بحالة واحدة، ويكون ذلك برد الأشخاص إلى الوحدة، التي يمكن أن تتحد بها النفس، ومن المحسوسات المقتناة إلى ضرورات البدن دون الاستكثار منها، فإن استيعاب جميعها غير ممكن؛ لأنها أمور لا نهاية لها.

وأخيراً، فما فضل عن الحاجة، وقدر الكفاية، فهو مادة الأحزان والهموم والمكاره، أما الشي الرخيص والمتوفر كثيراً فإنما رُغب عنه؛ لأنه معلوم متى التمس وجد، لكن الغالي لا يقدر عليه في كثير من الأحيان ومن هنا عز[1].

(١) ما تقدم مأخوذ من كتاب (الإمتاع والمؤانسة)، تحقيق أحمد أمين (وبتصرف قليل).

حوار حول الثابت والمتغير

سؤال: هناك من يعتقد بأن أكثر أمور الحياة ثابتة، ومن يرى أن التغيير سنة من سنن الحياة، فكيف نوفق بين هذين الاتجاهين؟

جواب: في هذه القضية أكثر من اتجاه ومدرسة:

الأولى: غلبة الثبات، والثاني غلبة المتغيرات، والمدرسة الثالثة: تجمع بين الاثنين، وقد وجدت من يعالج هذا الموضوع جيداً[1]، فيرى أن سنة التغيير تدرك جل شؤون الوجود الإنساني، ومن هنا تأتي (نسبية العقل والحياة)، ثم يرى أن أكبر وأعتى مشكلات الناس المتدينين قائمة في كونهم يؤمنون بحقيقة مطلقة متسامية ومقدسة، وهم في عيشهم وحياتهم يجدون نسبية في عقولهم وحياتهم، فأساس التضاد قائم، لكن هذه المشكلة الداخلية لن تفضي إلى كارثة، ولكن جزءاً من المشكلة يظهر حين تُضفى قداسة الدين ومطلقتيه على تصورات واجتهادات الإنسان في فهم النصوص وتفسيرها، مع أن الإنسان مرتبط بفهمه واجتهاده بالمكان والزمان وقابليته للخطأ والصواب، وهنا يتوصل الإنسان إلى أن ما تصوره هو عين الدين، بل قد يخيل لمن حوله أن هذا التصور والاعتقاد هو الدين، وهنا يجري تكفير من يخالفه أو يرميه بالفسق والفجور.

سؤال: عقل الإنسان محدود بحدود ثقافته وإمكانه، فكيف يدرك المطلق؟

جواب: إذا كان الاعتقاد بأن العقل الإنساني يتحلى بجملة من الثوابت

---

(١) د. خاتمي، مطالعات في الدين، ط١، ص٣٠.

والقناعات المطلقة والتي تكون معتبرة مع اختلاف الزمان والمكان، إذا كان ذلك كذلك، فمن المفيد النافع الاعتراف بأن عقل الإنسان مبتلى بالمحدودية، وهو يتأثر بالكثير من المعوقات لتصوراته، كما أن معارفه عرضة للخطأ والصواب، وهو يتغير بشكل دائم، ولا أدل على ذلك من الاختلاف بين أصحاب الديانة الواحدة، بل بين اتباع المذهب الواحد.

سؤال: ألا يوجد قدر مشترك بين البشر، يمكن أن يجمعهم؟

لعل من باب الإنصاف الاعتراف بوجود قضايا مشتركة بين البشر، فالكون كتاب الله، يقرؤه الناس على حسب ثقافتهم وخلفيتهم الفكرية والاعتقادية، الكون كتاب مفتوح، والوحي الإلهي كتاب الله المقروء، ولن يغني الكون عن الوحي، وإلا لما احتجنا واحتاج الإنسان إلى الأنبياء، فمازال البشر منذ ألوف السنين يملكون العقل ويستعملونه، لكنه لم يوحد بينهم، ربما إلا في قضايا قليلة.

سؤال : هل يتطور العقل، أو يمكن أن يتطور عبر خط ثابت؟

جواب: لأوجست كونت نظرية في تفسير التطور الاجتماعي على أساس تطور العقل عبر خط ثابت، كما يعتقد أن التغير الاجتماعي هو محصلة للنمو الفكري للإنسان، وكل تطور في النظام السياسي أو الديني أو الأخلاقي هو انعكاس لتطور مماثل في الحالة العقلية وأساليب التفكير، التي عبر بها المجتمع، وقد دفعه ذلك لتحديد ثلاث مراحل قطعها العقل الإنساني في مسيرته، ابتداءً من المرحلة اللاهوتية إلى الميتافيزيقيا وانتهاء بالوضعية، التي يسودها المنهج

العلمي؛ وهناك ثلاث مراحل كبرى تقابل التطور الفكري للمجتمع، وهي مرحلة الغزو، تليها مرحلة الدفاع، ثم أخيراً تأتي مرحلة الصناعة.

إن هذا التصور على المستوى العقلي وما يقابله على المستوى الاجتماعي، هو الذي يقدم تفسيراً كاملاً للتاريخ الإنساني[1].

سؤال: ألا تلاحظ تداخل هذه المراحل ببعضها؟

جواب: نعم، إن هذه المراحل متداخلة، بل موجودة في المجتمع الواحد، أما ما يقابل ذلك من التطور الفكري، ابتداءً من مرحلة الغزو تليها مرحلة الدفاع ثم مرحلة الصناعة، فنحن نرى اليوم الهجومات تتوالي فتثير دفاعاً قوياً أو ضعيفاً، وتبدو مرحلة الصناعة لا علاقة لها بالغزو ولا بالدفاع، فمن يغزو غيره فهو يثير الدفاع إذا كان بين القوتين نوع من التعادل والتوازن، فإن اختل ذلك فقد لا يعمد المغزو إلى الدفاع بل يستسلم، أما كون هذا التصور يقدم تفسيراً للتاريخ ففيه نظر أيضاً.

وما دمنا قد استعرضنا فكر «أوجست كونت»، فمن المفيد أن أتبعه بما يقوله الفيلسوف الاجتماعي البريطاني «بنيامين كيد» فهو يعتبر الدين العامل الحاسم في التطور، وهو بذلك يعارض نظرية «كونت» من أساسها.

سؤال: من المعروف عن «كيد» أنه يفرق بين النزعات، فما رأيه هنا؟

جواب: إن «كيد» يعتقد أنه لا يمكن للعقل الإنساني أن يكون سبباً في التقدم؛ لأنه يكسب الإنسان نزعة فردية، بينما التطور في جوهره نزعة اجتماعية،

---

(١) امزيان، تمهيد في علم الاجتماع، نقلاً عن منهج البحث، ص١٠٦.

تستهدف مزيداً من الترابط الاجتماعي، ولذا كانت القوة الوحيدة المؤثرة في التقدم هي الدين؛ لأنه يوحد بين الأجيال، ويحقق التكامل بين المجتمعات، وينقذ الحضارات الكبرى، ويمنع التفكك الاجتماعي خلال القرون، كما حدث للمسيحية في القرون الوسطى[1] .. هذا ملخص رأي «كيد» في العقل والدين.

وأحسب أن أحداً لا يجادل في قيمة الدين وجمعه الناس على اختلاف أجناسهم وعصورهم، ولكن بشرط واحد هو أن تكون العقيدة حية والالتزام صادقاً قوياً.

والمثل الجيد لذلك أمتنا، فقد مرت بثلاث مراحل مختلفة، الأولى مرحلة ما قبل الإسلام، قبائل مختلفة لا يجمعها جامع، يغير بعضها على بعض، وتشتعل الحروب لأتفه سبب، والمرحلة الثانية كانت بعد قبول العرب للإسلام، فكوّن منهم أمة واحدة في دولة واحدة، فدخلت التاريخ، واستلمت الريادة والقيادة بفضل الوضع الجديد، الذي صارت إليه، والمرحلة الثالثة حين بدأ العد التنازلي وتراخى الالتزام بالإسلام، عقيدة وشريعة وحضارة، فخسرنا الريادة والقيادة، بل تفرقنا أيدي سبأ، وخسر أكثرنا استغلاله السياسي، وصرنا هيئة أمم بدل أن نكون أمة واحدة!

فالدين متى كان قوياً، ولو كان محرفاً أو منسوخاً، فإن قوة الالتزام تجعله فاعلاً، فإن كان سليماً خالياً من الخطأ لكن الالتزام به كان ضعيفاً، فلن يكون له هذا الدور.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٠٧.

محاولة لرسم العلاقة مع الغرب

منذ أكثر من قرن ونحن نحاول رسم العلاقة مع الغرب، حضارة وسياسة، ولكن خط السير بقي متعرجاً، يشده البعض شمالاً، والبعض جنوباً، البعض لا يري هذه العلاقة مطلقاً، بينما يطمع بعض في الذوبان بهذا الغرب، ويتصور أن ذلك هو قدرنا، الذي لا مفر منه، ولا نجاة بغيره.

سؤال: هل يمكن رسم هذه الخارطة بشيء من الوضوح كي يضع القارئ أصبعه على الحروف، كما يقال؟

جواب: نعم، ولكن نريد أن يكون معلوماً أن الهدف ليس التشنيع على أحد ولا ذمّه، فمختلف الأفكار أناس يؤمنون بها، ويعملون على نشرها ليل نهار، ولذا فهي ليست من الأسرار، ولا مما يخجلون منها، والمطلوب فقط الأمانة في النقل، وعدم تحميل الكلام فوق ما يحتمل وبعده، أن لا تجري محاكمة النيات، ولا اعتماد الأعداء والمخالفين مصادر للأقوال، فنحن نعلّم طلبتنا مثلاً: أن لا يأخذوا أقوال مذهب فقهي من كتب مذهب آخر، مع أننا لا نتهم أحداً بالكذب أو افتعال الأقوال، ولكن سلامة المنهج تقتضي أخذ الرأي من كتب المذهب ذاته، وليس من كتب مذهب آخر.

سؤال: هذا أمر جيد ولا غبار عليه، بل لا يسع أحد أن يرفضه أو يشكك فيه، فما الأمثلة؟

جواب: هذه عينة فهذا الدكتور زكي نجيب مثلاً يقول[1]: «لقد لبثت أعواماً لا أرى للحياة القومية المزدهرة إلا صورة واحدة، هي صورة الحياة كما يحياها من أبدعوا حضارة العصر، فلقد شاءت تطورات التاريخ أن يكون هؤلاء المبدعون هم أبناء أوروبا وأمريكا، فهناك ولد العصر، بعلومه وفنونه ونُظُمه، ولهذا فقد أصبحت سائر شعوب الأرض إنما تقاس بمقدار قربها أو بعدها من الطراز الغربي القائم، هكذا كان الرأي عندي حتى أواسط الستينيات، وقد بلغت فيه حد التطرف، الذي لم يعرف لنفسه حيطة أو حذراً، وكان الأمر يبدو أمام ذهني وكأنه من البدهيات، التي لا حاجة بها إلى مزيد من البحث والتأمل».

فالرجل يتحدث بنفسه عن قناعاته، وهو يمثل فريقاً مثله، يؤمن وما يزال يؤمن بأن لا طريق لنا سوى متابعة الغرب وأخذ كل ما عنده، حلوه ومره، كما ذكر الدكتور طه حسين، وهناك من يندفع أكثر من ذلك، فهذا «سلامة موسى» الكاتب المصري، يقول مثلاً[2]: إنه لا يعتقد بوجود ثقافة غير ثقافة الغرب، وكل ما سواها فهي ثقافة استبدادية، وهي أساس البلاء في الشرق، لذا يجب أن نقتبس كل ما في الثقافة الغربية».

وهذا الحماس نجده لدى كثير من أبناء الأقليات الدينية والعرقية، ولدى بعض أبنائنا أيضاً.

---

(١) زريق، في معركة الحضارة، ط١، ص٤٠.

(٢) فادي إسماعيل، الخطاب العربي، ص٦٤.

وقد قام «صفوت حاتم» بعمل مسح لمن يؤمن بهذا التوجه في مطلع القرن العشرين عندنا، فوجد ثلاث جماعات[1]:

أولاً: مدرسة العلمانية الإسلامية وشعارها «التحديث والعلمنة» وأبرز رجالها دكتور طه حسين ومحمد حسين هيكل ولطفي السيد وآخرون.

ثانياً: مدرسة التغريب الرافضة لروح التوفيق الإسلامي.

ثالثاً: المدرسة القومية.

وأترك الرد والمناقشة للدكتور برهان غليون، إذ يقول[2]: لم يكن الانزلاق من تقديس العلم إلى رفض التراث باعتباره مرادفاً للقدم والتأخُّر، وتوحده مع الدين، لم يكن أمراً صعباً أو غير متوقع، بل يمكن القول: إن نظرية النهضة قد انتقلت، تدريجياً وعفوياً، من فكرة تأكيد العلم كمصدر للحضارة، إلى فكرة أن التراث والدين والتقاليد هي مصدر الانحطاط، وصار الاجتهاد لإدخال العلم إلى المجتمع العربي يتوقف، هو ذاته، على النجاح في تحطيم هذه البنى القديمة، وبذا تكون معركة النهوض قد تحولت من ترجمة العلوم وإفساح المجال لها في صلب الدين والتقاليد والتراث، إلى العمل على إزالة هذه التقاليد وتصفيتها، لذلك يستنتج (سلامة موسى) أن أعظم العقبات، التي تؤخرنا كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا هي هذه الرواسب الثقافية والتقاليد والغيبيات،

---

(١) الليبرالية العربية، مجلة الوحدة العدد (٣)، عام ١٩٨٤م.

(٢) اغتيال العقل، ط٦، ص ٢٠٠.

من فرعونية وبابلية وأمثالها.. وليس لذلك من دواء سوى العلم، فهو نار كاوية، تحرق جميع الرواسب وتبدد عفنها هباءً.

ومع هذا الموقف المعادي للتراث، وموقف رفض الذات، والتماهي مع الآخر، لم تبق إلا خطوة واحدة، وقد قطعها دكتور طه حسين حيث فتح في أيديولوجية التقدم العربي باباً لن يغلق بعده، يقول طه حسين: إن مستقبل مصر مرهون بأخذها مُثل الحضارة الإنسانية والفضائل المدنية والدمقراطية، كما مثلها الغرب، وعلى مصر أن تصبح جزءاً من أوروبا، وأن تسير سيرتهم في الحكم والإدارة والتشريع، علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء.... إن طه حسين يقدم حلاً سحرياً، إذ يكفي الانتماء إلى الغرب وحضارته عناء الصراع الدائم من أجل معرفة ماذا نأخذ وماذا نترك، وما هو الصالح وما الطالح في الفكر الأوروبي؟ ......

ونستطيع أن نقول: إن هذه «الفتوى» قد وجدت أكثر من أذن صاغية، ولدى أكثر من نصير للتقدم العربي، بل هناك من فسر هذا النداء كدعوة إلى الرقابة على الضمير، وتشريع تغيير وتبديل لاعتقادات الناس قسراً، وذلك لأن المجتمع العربي ما يزال في بنيته الأيديولوجية الغالبة مجتمعاً تقليدياً، غير أنه يتحرك أيديولوجياً بقيادة أقلية طليعية في اتجاه التحديث».

هذا التصور يبسط القضية أولاً، ويرفع العتب والمسؤولية، فما علينا من أجل التقدم إلا أن نأخذ ما في الغرب، وعندها سنتقدم.. والجواب كل العالم يأخذ عن الغرب، ومع ذلك فكل في مكانه، متقدمهم ومتأخرهم.. القضية بحاجة إلى منهج واضح يقول: نأخذ كذا ونترك كذا ونعمل كذا.

القسم الثاني

الموقف من التراث والحداثة

-١٤٠١هـ-

- اتهامات متبادلة:

إذا جرى طرح المسألة وجدنا الاختلاف في الأسباب، فهناك من يتهم (العقل العربي)، ومن يتهم (التراث).. د. غليون: يرى أن (الحداثيين) يفسرون عدم النجاح في ميدان العلوم والمعارف، في الحاضر والماضي، وللثقافة بعمومها، كل ذلك يعود لخصائص في (العقل العربي) أو الشرقي أو البدوي، ليصلوا إلى أن (شرط اكتساب العلم) لن يكون حتى (نتخلى) عن تاريخنا وثقافتنا، إذ هي (أصل الفساد) ومنبع الخطأ، لذا فالواجب (النهل) من العلم الغربي، لكن (الجماعة) لا يدركون أن هذا (النهل) مخالف للعلم، وللمنهج العلمي الصحيح[1].

ويناقش د. غليون كل ذلك مناقشة علمية مستفيضة فيذكر جملة أمور[2]:

١- عدم وجود مساهمات علمية في الإنتاج العلمي الحديث في جامعاتنا، والاستثناء من ذلك العرب الباحثون في الغرب، سواء في الجامعات أو مراكز البحوث.

---

(١) اغتيال العقل، الطبعة السادسة، (٢٢٤).

(٢) المرجع السابق، (٢٢٦).

٢- إن اتهام العقول العربية بتهم مثل اللاعقلانية أو السحرية أو البيانية، كل ذلك لا يفيد ولا يفسر.

٣- اتهام العقلية العربية بالتعلق بالـتراث، فإن ثقافة اليوم العلمية لا تستمد مفاهيمها ولا طرقها ولا غاياتها من التعليم القرآني أو الفقهي مثلاً بل الأغلبية (الدارسة للعلوم) قد تعلموا في مدارس حديثة، وفي كليات ومعاهد لا تختلف عن مثيلاتها في الغرب.

٤- بل هناك نخب كبيرة تخرجت في جامعات الغرب الكبرى، ولا صلة لهم (بالتراث)، ولا بالثقافة العربية (الكلاسيكية)، أما معرفتهم للعلوم الدينية والفقهية - باستثناء قلة من المختصين - فهي معدومة، وإن وجد شيء فهو انتماء (رمزي) في أحسن الأحوال.

٥- كيف إذن يُتصور أن هؤلاء يستقون عقليتهم اللاهوتية والسحرية من المعارف الإسلامية التقليدية؟؟

٦- يطرح د. غليون تساؤلاً ثم يجيب عنه فيقول: ما أسباب انعدام (الروح العلمية الإبداعية)؟ فيردها إلى (القطيعة) مع التراث، وكذلك كون الثقافة المحلية، هي مصدر غياب الحافز (للبحث والتجديد).

٧- كذلك يمكن التسليم بأخذ العلوم كما هي، ولن يفيد هنا القول: بأن الثقافة (المحلية) قد (ضحت) بالتيار (العقلاني) لصالح التيار الفقهي، إلا إذا آمنا بفكرة (الخطيئة الأصلية)، والتهرب من مواجهة الواقع الراهن.

إن اختـــراع (الأعداء) ليس صعباً، ورمي الفشل عليهم سهل ميســـور، لا يعجز عنه حاكم ولا محكوم، فهل يعجز عنه (الأخ الحداثي)؟

لقد ظل العقل العربي قروناً متقدماً على سواه في العالم، وحين كانت مدارسنا في الأندلس والقاهرة ودمشق وبغداد يأمها كل طلبة العالم، ولا يُعتبر الإنسان عالماً حتى يتعلم اللغة العربية، يقـــول «ديورانت» في قصة الحضارة: إن مكتبة الصاحب بن عباد الشخصية كانت تحوي من الـــكتب أكثر من كل ما مكان في المكتبات العامة في أوروبا كلها.. ومراجعنا وكتبنا كانت تدرس في العالم إلى عهد قريب، في الطب والهندسة والجبر والرياضيات والفلك، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

أهداف ووسائل

- الحداثة.. الأهداف والوسائل:

البعض عندنا يعشق المبالغة حتى يجعل من (الحبة قبة) ويتحدث كتاب ومؤلفون عن الليبرالية فإذا هي (جنة عدن)، ويتحدث آخرون عن الديمقراطية فلا يبقى من الخير شيء إلا حوته ودعت إليه، ومثل ذلك الحداثة، والعاشق يرى الجمال والجلال والروعة كلها اجتمعت في معشوقته، وإذا لم يسلم له العالم بذلك، فالعيب فيهم وفي رؤيتهم، وعليهم أن يتهموا أنفسهم ليس إلا!!

د. برهان غليون يحاول تحـــديد أهـــداف الحداثة بدقة مع الوسائل، وما يمكن أن توصلنا إليه[1].

١- تكوين منظومة (العقل النظري)، ومهمتها بيان أسس (المعرفة) الحقيقية، إذ تؤسس (للعلم).

٢- تكوين منظومة العقل (العملي)، ومهمتها تحديد (معيار) السلوك الصحيح (الواجب)، وهذه المنظومة تجمع ما يتعلق بالأخلاق.

٣- تكوين منظومة العقل (الرمزي)، وهذه تعين معيار (الجمال)..

أهداف تبدو جميلة، ثم يحاول د. غليون سبر أغوارها وبيان النتائج الفعلية.

فالحداثة (تفضي)، كمنطلق لتكوين (العقل العربي الحديث)، تحديداً إلى (عكس) ما تريد الوصول إليه، فهي تسعى إلى (تدمير) أسس الواقع المنظور

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٢٠.

والتجربة العلمية، باسم أيديولوجية (علموية) مع إلغاء نظام أخلاقي باسم (تحررية) متمحورة حول إرضاء (الرغبات الفردية)، لتنفي كل مكانة لمفهوم (الواجب والحق)، أو تدفن إبداعية المخيلة في ممارسة (استنساخية) فاقدة لكل عوامل الانسجام.

وهكذا، بعد أن تفضي لتدمير أسس العقل العربي، فإنها تضع نفسها والمجتمع في ظروف تجعله غير قادر فيها على فهم (المشكلات) الكبرى المطروحة عليه، وإيجاد الحلول لها.

- بين الحق والباطل:

البشر يختلفون، فإذا وقعوا في الاختلاف فما هو المرجع في ذلك؟

يبدو أن الحداثة تريد أن تصبح ديناً جديداً، ومثلها الشيوعية، حاربت كل الأديان، ثم صارت ديناً جديداً متشنجاً أكثر من الأديان كلها، ومن هنا جاء مقتلها.

الحداثة وسيلة عمل وليس عقيدة، فإذا صارت عقيدة فمصيرها لن يكون أفضل من الشيوعية.

- ما تقدمه الحداثة عندنا:

د. برهان دائم الحديث عن (الحداثة)، وهو يحاكمها محاكمة (صعبة).. وأتمنى أن ينبري أحد عشاقها فيفند ما يقال في المعشوقة (حداثة).. د. برهان يقول:

«إن حداثتنا (تسد) علينا الأبواب في السياسة والاقتصاد والثقافة والعلم والمعرفة والاجتماع والأخلاق –ماذا بقي؟؟– إنها تنتج (قهراً وعنفاً واستبداداً) أكثر بكثير مما تنتج من حريات (فكرية عملية)، وهي تراكم (الفقر والبطالة والبؤس) أكثر مما تزيد من قدرة الأفراد على الاختيار في تحسين شروط حياتهم المادية والمعنوية، وهي تشجع عمليات (غسيل) الدماغ، وصب فكر الأفراد في قوالب جاهزة وجامدة، أكثر مما تنحي العقل المفكر والمتأمل والمتسائل، وهي تعمم الأيديولوجيات والشعارات والأساطير الدعائية، أكثر مما تعمل على تكوين الأفراد وتأهيلهم، وصقل عقولهم، وتزويدهم بالمعارف الحقة، وهي تنتج (الإمعية) والتبعية والالتحاق والولاءات الزبونية والعصبوية، أكثر مما تقود إلى انبثاق الذات الحرة والمسؤولة والفاعلة والمشاركة في تقرير مصيرها، وهي تبني السلوك على معايير القوة والغطرسة والانفراد والازدواجية، وانعدام المسؤولية أكثر مما تصنع قواعد أخلاقية تنظم العلاقات بين الأفراد، على أسس طوعية مدنية... »[1].

أشعر أن د. غليون خاب ظنه في الحداثة، وأصيب بإحباط كبير من حداثتنا (الرثة المدجنة)، التي فشلت أن تقدم شيئاً نافعاً مفيداً.. فهل من يتطوع لمناقشة كل ما كتبه د. غليون وأمثاله؟ وبالمناسبة، أتمنى أن يقوم طالب (دكتوراه) فيناقش كل ما قيل في العلمانية والليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة.

---

(١) صحيفة الحياة في ١٣/٢/٢٠٠٦م.

العلمانية.. والمعرفة المنقولة

- العلمانية عدمية واستعمار ثقافي:

د. هشام شرابي، فلسطيني الأصل أمريكي الجنسية (أستاذ بيل كلنتون) يتحدث عن العلمانية وهي شقيقة الحداثة، علماً بأنه من (رموزها) يتحدث حديثاً غريباً فيصفها بكونها (عقيدة الأغنياء)، وأن السائد منها في أوساط المثقفين العرب كونها من أشكال العدمية البرجوازية والاستعمار الثقافي الغربي، وأن المبشر بذلك عندنا بنظرية (الانقطاع) ما بين ثقافتنا العربية المعاصرة، وبين تراثنا الفكري، هؤلاء لا يقصدون توجيه الجيل العربي نحو التقنية العلمية الغربية، بل نحو الأيديولوجية البرجوازية الغربية، وتحديداً نحو الأنواع (العدمية) من ثقافة الغرب خاصة، أما الغرض الأساس، الذي يرمون إليه، فهو إبعاد هذا الجيل من (مشكلات بلاده) والتي تحددها ظروف المعركة التحررية التقدمية القائمة الآن في بلاد العرب بأقصى حدتها[1].

- قيمة المعرفة المنقولة:

الجديد لدى د. شرابي، إيمانه بأن (المعرفة المنقولة) والمستوردة لا تنشئ وعياً ولا تحرر فكراً، ولا تطلق قوى الإبداع في الفرد ولا في المجتمع،

---

(١) دراسات في الإسلام، نقلاً عن النقد الحضاري، ط١، ص٦٠.

بل تعمل في أعمق المستويات على تعزيز العلاقات (التبعية) الثقافية والفكرية والاجتماعية[1].

هذا حديث رجل (ليبرالي) غير متهم، وقديماً قيل: (إذا قالت حذامي فصدقوها)، فهل العيب في النقل أم في شخص الناقل؟؟

لقد نقلنا عن الحضارة اليونانية الكثير من العلوم، وتركنا كلياً الآداب؛ لأنها كانت (وثنية) تؤمن بتعدد الآلهة، التي تجاوز عددها (٣٠) ألف، والحروب بينها مشتعلة، قمنا بدراسة لكل العلوم ونقدها، ولم يفعل النقل ما يراه شرابي.. كنا أقوياء واليوم نحن ضعفاء ونفتقد الثقة بما عندنا، من هنا اختلف الموقف، فالعيب ليس في ذات النقل، بل في الظروف المحيطة به، ومعلوم أن الحضارات نقلت وترجمت واقتبست.

- د. شرابي: العلمانيون باحثون أجانب:

يواصل د. شرابي هجومه القوي على العلمانيين فيقول: ينسى المثقفون العلمانيون (تجربتهم الذاتية) في كتاباتهم، فتظهر كأنها أبحاث يقوم بها (باحثون أجانب)، تتصف كتاباتهم بالتجريد الأكاديمي، وينطوي على ذلك نتائج في غاية الأهمية، إذ أن مقاربة (الذات) من موقع (الآخر) وبأسلوب وموقع الباحث الأجنبي يؤدي بالضرورة إلى (تبعية فكرية) يصعب التغلب عليها[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٥١.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

هــذه ليســت تــهم أروجها، ولكن آراء باحث (من أهلها)؛ فهل ترد شهادته؟

- البحث العلمي الاجتماعي غير محايد:

يهاجم د. شرابي ما يعرف بالبحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي لا تقوم على الموضوعية ولا الحياد، بل ترتبط دائماً بمواقف نظرية وطرق منهجية، وتؤثر تأثيراً كبيراً في النتائج، التي يتوصل إليها الباحث في بحوثه العلمية الموضوعية... كما أن النظرية العلمية ومنهجيتها إنما ينبثقان من أرضية غير علمية ولا موضوعية أساساً، بل يعبران عن اتجاهات ومعتقدات ومصالح خفية ولا شعورية[1].

ادعاء الموضوعية في البحث ليس صعباً، والتهرب منه كذلك ليس صعباً، والعبرة بما ينتجه الباحث، وما يتهرب منه، كما يكشف عن مخزونه الفكري، وخلفيته التاريخية.

- أنظمتنا ومعارفنا كلها غربية:

يذهب د. شرابي في هجومه إلى أبعد مدى حيث يقرر: (أن أنظمة المعرفة وأساليب البحث العلمي) في بحوثنا الإنسانية والاجتماعية هي عبارة عن أنظمة وأساليب (غربية) في كل صورها وأشكالها، حتى معرفتنا (لذاتنا وتاريخنا ومجتمعاتنا)، كلها (معرفة غربية) في صحيحها... وهذا ليس خاص

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥.

بنا، بل هو عام في العالم الثالث، فهي تنتج وتعيد (المعارف الغربية) ولكن محلياً؛ وهنا يمكن أن نتفهم (أسباب الرفض) المطلق للغرب عند (الأصولية) وإصرارهم على (العودة) إلى الدين والتراث بهدف استعادة الهوية الأصلية، من خلال (معرفة تراثية مستقلة) عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية.

أعتقد جازماً لو صدر مثل هذا الهجوم وبهذه الحدة من أصولي مثلاً لهُوجم أكبر هجوم، واتهم بالتخلف والظلامية ومعاداة الغرب والتقدم، ولكن (الشاهد) يوصف بأنه علماني، وهو باحث وأستاذ جامعي يعيش في أمريكا، ويكتب بهذه الحدة والشدة، فكيف يفسر لنا العلمانيون ذلك؟؟

- الأولويات: الأمس واليوم:

الطالب العربي، وربما الشرقي عموماً، حيث يبتعث للغرب يعتقد أنه حاز الجنة والسعادة الكاملة.

هاشم صالح يسجل أحلامه ويقول: كنت أعتقد أن (الحل) يكمن في العلم، وكل باحث عربي غادر بلاده وتوجه للغرب وجامعاته يكون مسحوراً بتلك الفكرة، حيث أتاحت نشأة العلوم في الغرب، التفوق على كافة الأمم، ابتداء منذ القرن (١٦) للميلاد وحتى اليوم، ففلسفة المعرفة هي التي تدرس شروط إمكانية وجود المعرفة الصحيحة، وتمييزها عن المعرفة الخاطئة، وهي التي تبلور معايير التقدم وطرائق الاكتشاف والبحث العلمي، ولكن بعد فترة طويلة

من (التخبط والتيه) رحت اكتشف أن (الحل) يكمن أولاً في العقيدة وليس في العلم والمعرفة، وتحديداً يكمن في (علم الكلام) في (معرفة الله)، في علم اللاهوت، قبل أن يكمن في علم الطبيعة أو الفيزياء أو الرياضيات، وعندئذ فهمت أن (تحرير السماء) يسبق حتماً (تحرير الأرض)، بل لا جدوى من تحرير الأرض، قبل تحرير السماء، هذه السماء الضاغطة كالسقف فوق رؤوسنا[1].

اختلاف واضح لأولويات الأمس عن أولويات اليوم، والحب من بعيد غير الحب من قريب، وذهاب السكرة ومجيء الفكرة.

(١) الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية، بتصرف قليل، ط١، ص٢٤.

حداثتنا.. والغرب

- حداثتنا المخادعة:

الكاتب (كرم الحلو) يبحث في (الحداثة)، وكيف ينظر لها المؤيد المفتون والمعارض الغاضب، ثم يدلي أخيراً برأيه، حيث لا يرى سوى (حداثة معطوبة منقوصة معوقة مخادعة)، أربع صفات منفرة، ثم يلتفت إلى عالمنا العربي ليكشف عن إسهاماته، التي تصل إلى درجة (الصفر).

- مع الحلو:

يقول كرم الحلو، في حديثه الجيد: الحداثة في عُرف بعضهم مرادف للكفر والانحلال الأخلاقي والتبعية للغرب، أما في شرع (الحداثيين) فهي استبعاد لكل ما هو (تراثي أو ماضوي)، وكل ما يمت بصلة إلى (الذات) التاريخية وثوابتها الثقافية والعقائدية.. والحداثة في وجهها المادي العمراني - على رأي بعضهم- مقبولة لكن منزوعة من جذورها العقلانية ومن سياقها التاريخي الفلسفي، وهي على ما يرى (آخرون) هي أن ثمة إنجازات مادية وروحية وراء الإنجازات المادية والعمرانية، حيث يوجد عقل وروح لا تستقيم الحداثة من دونهما.

وحين نتأمل في الواقع العربي - مطلع القرن (٢١) - انطلاقاً من هذه الرؤية (المتنورة) لمفهوم (الحداثة) نرى أن (حداثتنا العربية) هي (حداثة معطوبة منقوصة معوقة مخادعة)، فالعالم العربي (يغص) بمنجزات الحداثة المادية والتقنية، من أبسطها إلى الأكثر تعقيداً.

فإذا نظرنا في عالمنا المعاصر، وما فيه من بحوث واختراعات علمية وفكرية وثقافية، رأينا إسهاماتنا تكاد تقرب من (الصفر)، مع أن في عالمنا العربي (٢٣٣) جامعة حديثة، تضم أكثر من (عشرة ملايين) جامعي، وأكثر من (ألف) مركز للبحث، ومع ذلك فإن إسرائيل تتفوق علينا كماً ونوعاً!!

ويختم مقاله: نحن بحاجة إلى (مصالحة) مع الحداثة، مصالحة بجهضة، فمنذ نهضتنا العربية إلى الآن لم نتجاوز بعد مرحلة (الصدمة) [1].

استــــعراض جيد لواقع محزن، واختلاف ليس هو الأول، ولن يكون الأخير (الحداثة) يراها البعض طوق (نجاة) ويراها -الكاتب- (معطوبة منقوصة معوقة مخادعة).

ويرى بحق أن البعض ما يزال تحت تأثير (مرحلة الصدمة)، فمتى نتجاوزها إلى غيرها، ومتى نرسم موقفاً متوازناً يحدد الحسنات والسيئات، من غير تحيز ولا انفعال؟؟

- فقدان الوضوح مع تلق بائس:

الغرب يقصفنا بكل ما لديه من أسلحة عسكرية وفكرية، فتضطرب ساحتنا، وتصير الرؤيا غير واضحة، ويصير رسم الموقف في غاية الصعوبة.

د. رضوان زيادة يدرس (العلمانية) كمثال، فيرى أنها صارت (مجرد سجال)، نقاش ونقاش بين مؤيد ومعارض، وليت الأمر يؤدي إلى إزالة التباس

---

(١) انظر: حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب.

أو توضيـــح مفهوم، (فالعلمانية) مثلاً ما زال مفهومها غير محدد ولا مبلور، رغم كثرة الحديث عنها[1].

وقبل هذا يتحدث الكاتب عن (التلقي البائس) فيقول: «المنطقة العربية غير قادرة على الإسهام -يقصد في الحضارة - ويقتصر دورها على (التلقي السلبي)، وفي الغالب يكون (سيئاً وبائساً) ويظهر ذلك عندما تقرأ (الإشكاليات) في غير سياقها التاريخي والاجتماعي، كما حصل في مصطلحات (العلمانية والاشتراكية والحداثة وما بعدها»[2].

فإذا كانت المصطلحات غير واضحة فكيف يكون (التطبيق)؟؟ ستظل هذه المصطلحات سبباً للاختلاف والشد والجذب، وكل ذلك يجعلنا نراوح في مكاننا، على حين يتقدم غيرنا، ويظل الغرب يمطرنا بأسلحته العسكرية، وبمصطلحاته، ونصيبنا (تلق بائس) ومواقف مختلفة متجاذبة أشبه بلعبة (شد الحبل)!!

---

(١) تحديات الإصلاح، ط١ (مركز الراية السورية، ٢٠٠٦م) ص١٠٩.

(٢) انظر: حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب.

الحداثة.. المفهوم والممارسة

- ما هي الحداثة؟

لعل من النافع المفيد أن نعرف ما تعنيه (الحداثة) وما بعدها، ومن قِبل أهلها، فمفكر مثل (ميشيل فوكو) يرى أن الحداثة ليست (مشروعاً ناجزاً وحـــكراً على الغرب، إنما هي ما يحققه تطلع المجتمعات نحو التغيير والانخراط في مشروع نهضوي تنموي[1].

د. عبـــد الوهاب المسيري - المفكر العربي المعروف- يصف (الحداثة) بأنها (تنميط) الواقع (الطبيعة والإنسان)، وفرض (الأحادية المادية) عليه، والهـــدف من ذلك إدارة وتوظيف (الإنسان) على أحسن وجه، باعتباره (مادة استعمالية) [2].

فإذا كان كذلك، فلا يختلف مثلاً عن أية مادة مثل (السماد الحيواني)، فيسقط تكريمه وما يمتاز به، أي خلع القداسة عنه وعما سواه، فلا مقدس (وكل الذي فوق التراب تراب)، فأين صار (العقل والإرادة)؟؟

هل من النافع المفيد أن نقول للإنسان: أنت حيوان وكفى؟؟ ولا ميزة لك على الحمار أو الخنزير مثلاً؟؟

---

(١) انظر: حسن حنفي، موقفنا من التراث.

(٢) في عالم عبد الوهاب المسيري، ط١ (دار الشروق المصرية) ٢/١٢١.

- الغرب غير مهتم بالحداثة والتحديث:

الكاتب والمفكر المعروف «أوليفيه روا» يكرر أن الغرب لم يفكر بالحداثة أو نشر التحديث عندنا، وكل ما يشغله (إعاقة الدول الإسلامية) من التحديث، وليس الأمر جديداً، فابتداء من الدولة العثمانية وحتى اليوم ما تزال (السياسة) ذاتها.

يقول «روا»: إن أوروبا لم توفر جهداً (لإعاقة) الدول الإسلامية من (التحديث)، ابتداء من الدولة العثمانية، ومحمد علي، إلى الإطاحة بـ(محمد مصدق) الإيراني، إلى الترسيم التعسفي للحدود، وكل ذلك كان يعيق قيام (دولة مستقرة) في المنطقة، ولعل آخر هذه الحروب (حرب الخليج)، التي لم تسفر عن أي جهد لإعادة ترتيب الخارطة السياسية، فقد رجعت الفعاليات نفسها والأنظمة ذاتها لتلعب جميعها (التمثيلية) نفسها، وفق موازين قوى استراتيجية مختلفة، باختصار: كان هاجس الغرب من دزرائيلي إلى جورج بوش، مروراً بـ (كلمينصو وكيسنجر) لم يكن ذات يوم قد لعب ورقة (التحديث) في الشرق الأوسط[1].

ما هو رأي العشاق عندنا بهذا الحديث الصريح، وهل مازالوا يراهنون على حراثة البحر؟ ألم يحن الوقت لإعادة النظر بالحداثة وما قبلها وما بعدها وبالأشقاء والأشقياء من إخوتها؟؟

---

(١) انظر: صحيفة الوطن السعودية، عدد ١٣٢٦/٣/٧هـ.

- الحداثة عنوان أم ممارسة؟

د. علي حرب، يتحدث عن أوهام الحداثة، ويطالب بأن ينقد كل أدوات المفهومية، التي توظف في بناء مشاريعنا (التحديثية)، بما في ذلك مفهوم (الحداثة) ذاته، وهو يرى أن الحداثة صارت (ملهاة) تستعمل بطريقة (سحرية)، لذا لا يكفي الانتساب إليها، كي يكتسب الخطاب مشروعية، والمتحدث بها حداثته.. علينا أن نصنع (حداثتنا) ونفرض وجودنا، فاليابان - مثلاً - قدمت مثالاً (نموذجاً) يمكن قراءته، فلم تصنع (حداثة فكرية) أو فلسفية، انطلاقاً من (حداثة الغرب) وطروحاته الفلسفية، بل صنعت (حداثتها) كمجتمع منتج فاعل خلاق[1].

يشير د. حرب إلى ابتعاد اليابان عن الدراسات النظرية الفلسفية، والتوجه صوب الإنتاج، وهو يلتقي مع ما طرحه (ميشيل فوكو)، فليس المطلوب (الثرثرة) حول الحداثة، بل إنتاجها، وهذا يذكر بالحمار (بوردان)، الذي تعلم الفلسفة وعشقها، وذات يوم جاع وعطش، واشتد عليه ذلك، وقدم له الطعام والماء، فطرح على نفسه تساؤلاً: يبدأ بالطعام أم بشرب الماء أولاً، واستغرق ولم يصل إلى نتيجة حتى (هلك) جائعاً عطشاً.

فهل المطلوب أن نحتذي - بطيب الذكر بوردان - أم نترك الثرثرة ونتتج حداثة تناسبنا - كما تفعل اليابان - دون اشتغال بالدوران حول القيل والقال؟

---

(١) مجلة الاجتهاد، العدد ٢١، السنة الخامسة، ص٩٥.

ولنذكر قول المصطفى عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ»[1].

- الحداثي مدعي نبوة:

د. علي حرب يرى أن المثقف العربي (الحداثي) بنوع خاص يتعامل مع ذاته بوصفه صاحب مهمة (نبوية رسولية) هي تحرير الأمة من الجهل والفقر والظلم والتخلف، لكن المهمة بدت دوماً (مستحيلة)، ولذا ترجمت غالباً بصورة (معكوسة) أو على نحو (مدمر) مما جعل المثقف العربي مصاباً دوماً باليأس والإحباط[2].

- قشرة حداثية لا أكثر:

د. هاشم صالح - سوري الأصل - من تلاميذ محمد أركون وحوارييه — يتحدث عن الحداثي العربي، الذي لديه (قشرة) حداثية، ويعتقد أنه متحرر لمجرد أنه ركب (قشرة حداثية) جديدة، فوق طبقة فكرية (قديمة راسخة الجذور)[3].

أما د. برهان غليون فيصر أن العلمانيين والحداثيين يدَّعون التحرر وبينهم عتاة القبلية والعشائرية والطائفية - كما تقدم- ومن السهولة بمكان أن يدعي إنسان مثل الرئيس بوش أنه على اتصال مباشر مع الله، ويتلقون الأوامر مباشرة، دون واسطة!

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦.

(٣) صحيفة الحياة، في ٦/٧/١٩٩٣م.

فلو تصورنا - جدلاً - أن عشرة من زعماء الدول الكبيرة اعتقدوا جميعاً أن لديهم اتصالاً بالله تعالى، ويتلقى الأوامر منه فكيف سيكون مصير العالم؟

- نحن وحقل التجارب:

منذ أكثر من قرنين ونحن (حقل تجارب) فاشلة.. يقول السفير السابق لمصر (حسين أحمد أمين): جربنا الليبرالية والحكم العسكري، الدمقراطية والفاشية، تعدد الأحزاب والحزب الواحد القائد، الرأسمالية والاشتراكية، الانفتاح الاقتصادي والانغلاق، السير في ركاب الغرب وركاب الشرق، القومية والوحدة العربية، والانتماء الأفريقي، ساندنا الأنظمة التقدمية وآزرنا الأنظمة الرجعية....

لقد نادينا بالشعارات كافة، وتلونت أجهزة إعلامنا بألف لون، تغنينا بمدح الحكام ثم هجوناهم، أقمنا لهم تماثيل ثم حطمناها، سمينا الشوارع بأسمائهم ثم غيرناها، حاربنا إسرائيل ثم صالحناها، باركنا ثورات وانقلابات ثم انقلبنا عليها ولعناها، أقمنا اتحادات ثم ألغيناها، قاومنا النفوذ الأمريكي ثم استسلمنا له، سخرنا من الدول النفطية ثم رحنا نتلقى المساعدات منها، عاديناهم زمناً ثم صادقناهم.

فما الذي بقي أمامنا لم نجربه بعد، لم يبق غير الحل الإسلامي، حل جدير بأن تتاح له فرصة لتطبيق شريعة الله، المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله، يراها الأصوليون كفيلة بتوفير الحلول الحاسمة لمشاكلنا كافة، من الاغتصاب إلى الديون الخارجية[1].

---

(١) صحيفة الحياة، ٢٠٠٤/٤/٨م.

بكلٍ تداوينا فلم يجد ما بنا، فهل كتب علينا أن نكون (حقل تجارب)؟!

وهل كتب علينا أن نقلد حتى (عبادة الشيطان)؟!

- الغرب ملهمنا فقد الثقة بنفسه:

منــذ أكثر من قرنين ونحــن نترســم خطوات الغرب، خطوة خطوة، فلا يشيــع مذهب ولا فكرة إلا ولها (عشاق) عندنا ومن أهلنا.. المشكلة الآن أن هذا (المعلم) صار يمر (بفترة ضياع) بنفسه وقيمه، ابتداء من الحكومة إلى القيم التقليدية والتربوية إلى الدين والكتب المقدسة، كل ذلك بسبب الصراع من أجل (التقدم المادي)، حتى قال الفيلسوف (نيتشه): اجمع .. اجمع - أي المال - ذلك هو الشريعــة والقــانون، فإذا كان هذا حال الغرب، فما حال من يقلده ويترسم خطاه؟

ما تقدم ليس قصيدة (هجاء) ولكنه شهادة شاهد من أهلها غير مطعون بشهادته.. يقول دكتور (كيفري لانغ) الأمريكي الأصل والجنسية[1]: أعتقد أن الغرب الحديث يمر بتجربة كبرى من ضياع الثقة بالحكومة والقيم التقليدية والتربية والعلاقات الإنسانية، وكذلك الكتب المقدسة والدين والله، كل ذلك قد اضمحل وتلاشى بسبب الصراع من أجل (التقدم المادي)، وقد خلف هذا الضياع فراغاً كبيراً، وأنجب أفراداً لا يعترفون بأي نظام فكري، وهكذا أصبحوا فوضويين فضوليين، مستعدين لأي وجهة نظر بديلة.

---

(١) حتى الملائكة تسأل، ص٢٠٤.

فإذا كان هذا حال (المعلم) فمـــاذا سيـــكون حـــال التلميذ المسكين أو العاشق الولهان.

- العلاقة بين التقليد والإبداع:

يقول علماؤنا: التابع تابع ولا يفرد بالحكم، والمقلد تابع، والإبداع يتطلب (أصالة) لا يملكها المقلد.

د. حسن حنفي – الكاتب المصري المعروف – يتحدث عن (تقليدنا) للغرب والذي يشمل الكثير من أمورنا، ومن ذلك (الأحزاب السياسية)، فيقول: لما تولد أحزابنا السياسية الحالية عن تيارات فكرية حديثة (تعثرت) في رؤيتها للواقع، وفي حشدها للجماهير، إذ لا يوجد (عمل سياسي) إبداعي دون (أصالة)، بعيداً عن (التغريب)، ومازالت أحزابنا السياسية حتى الآن، وخاصة (العلمانية) منها (تصوغ) القضية السياسية على نحو مغترب، وتجد (الحل) عند الآخر وليس بتحليل (الأنا)[1].

ويرى أن الاستعمار السياسي (رحل) ولكن ليحل مكانه استعمار ثقافي يتمثل (بالاستغراب) المقابل للاستشراق، خصوصاً لدى الطبقات (العليا)...

يعاود د. حنفي الحديث عن (التقليد والإبداع) ليحدد شروط (الإبداع) فيقول: لا إبداع ذاتي دون تحرر من هيمنة (الآخر)، ولا إبداع (أصيل) دون العودة إلى (الذات) الخاصة، بعد أن تقضي على (اغترابها) في الآخر، وتتجاوز

---

(١) انظر: مقدمة في علم الاستغراب.

هذه الأصالة مستوى الفنون الشعبية، والمظاهر الخارجية إلى مستوى القوالب (الذهنية) والتصور للعالم[1].

- عندما يكثر الوكلاء:

كنت استمع للشيخ (الإبراهيمي) شيخ علماء الجزائر يكرر: عندما كثر المجاهدون اختفى الجهاد.. وأزيد: عندما امتلأت بلادنا بكليات الشريعة والتربية، قلّ من يفقه مقاصد الشريعة، ويرعى التربية في بلادنا.

الأساتذة د. برهان غليون، ود. رفيق حبيب، ود. حسن حنفي وأمثالهم يشكون كثرة (الوكلاء) للغرب، تنافسوا وتنافسوا، حتى أمسى أكبر مشروع لنا أن نترجم (ألف كتاب)، ثم نضعها في مخازن الدولة لتكون طعاماً جيداً للجرذان، أو تحترق المخازن فتنتهم (الماس) الكهربائي، وتنتهي (الرحلة).

د. حسن حنفي يقول: كثر الوكلاء (الحضاريون) في مجتمعاتنا، تنافسوا بينهم، في المعروض والمنقول، كثرت الدعاية بالرجوع إلى المصادر والمراجع بلغتها الأصلية، وكتابة المصطلحات بالإفرنجية، أمام المصطلحات العربية، خوفاً من سوء الاجتهاد، مع الشكوى من عدم (طواعية) اللغة العربية لمقتضيات المصطلحات الحديثة، كثرت المؤلفات الجامعية في المذاهب الغربية، ليظل أكبر مشروع لنا هو (ترجمة ألف كتاب)[2].

---

(١) حسن حنفي، مقدمة في الاستغراب، طبعة ١٩٩١م، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٧٢.

نحن والتراث والآخر

- نحن والتراث: أخطاء شائعة:

بعض أهلنا اتخذ من (التراث) وسيلة يعلق عليها حل مشاكلنا، يتحدث د. حسن حنفي عن بعض أخطاء شائعة في الموقف من التراث[1]:

١- لقــد نزعنا أنفسنا من بيئتنا الثقافية، إما إحساساً بالعار أمامها، أو خجــلاً منها، أو جهــلاً بــها، أو تقليداً للغير، أو انبهاراً به، أو رغبة في اللحاق بركبه.

٢- زرعنا أنفسنا في بيئة ثقافية أخرى، ورحنا نشترك في (معاركها) مع إننا لسنا طرفاً فيها، فحولنا أنفسنا إلى (وكلاء) حضاريين للغرب، فهذا مثالي، وذاك واقعي، هذا عقلي وذاك حسي، هذا وجودي وذاك وضعي، هذا تحليلي وذاك بنيوي، هذا ماركسي وذاك برجماتي...

٣- نــهرب من الواقع ذاته فــلا نرى أوضاعه ولا أزماته، ولا ندخل في تحدياته، نراه من غير ثقافة أصيلة فيه، أو كثقافة (طائرة) فوقه تحل محل الأولى، فيظل بدون حراك، لا يتغير بعد أن صفي (دمه) الأصيل، ونقل إليه (دم غريب).

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٧.

- موقفنا من التراث الغربي:

إذا كان لنا أخطاء تجاه تراثنا، فلنا أخطاء كذلك تجاه (التراث الغربي)، يقول د. حنفي: هناك ثلاثة أخطاء في موقفنا من التراث الغربي:

١- إخراج الثقافة الغربية من بيئتها المحلية، ومن ظروفها التاريخية، وكأنها (مذاهب مطلقة) وثقافة عامة، لا أرض لها ولا وطن، ثم جعل أنفسنا أطرافاً في معاركها.

٢- منح الثقافة الغربية نوعاً من الإطلاق والتعميم ليس لها، ونشرها خارج حدودها، وتحقيق مآرب ثقافة المركز، باعتبارها ثقافة مهيمنة وموجهة للأطراف كافة.

٣- محاربة الثقافة (المحلية)، إذا ما قاومت الثقافة (الوافدة)، وإحداث صراع بين (الموروث والوافد)، وشق الثقافة الوطنية، والسقوط في الازدواجية الثقافية[١].

لا يجادل أحد بأن الغرب يضغط بكل قوة- لجعل ثقافته وقيمه وتوجهاته سائدة في العالم كله، ويساعده ويشجعه في ذلك مجموعة من (الوكلاء)، قد يبالغون في الحماس أكثر من الغرب، وهم يجدون في الغرب (راعياً وحامياً ورافعاً) لهم، ولذا فهناك (تخادم) أخدمني كي أتقدم وأخدمك، كذلك نجد أن (التغريب) يسبب لنا أزمة، ويشعل صراعاً.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧.

الغرب الآن وعن طريق الحكومات ومراكز البحث، يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من قضايانا، بينما يخاف أن يقول كلمة لإسرائيل، في قضية مهما صغرت.

أخيراً، فالغرب لا يخفي أزمته، ولكن الوكلاء عندنا هم الرافضون؛ لأن رأسمالهم ما لدى الغرب، فإن اعترفوا بالأزمة، فيكونوا كمن ينكر أبوة والده....

- انتشار الشك الغربي:

الغرب منتج صناعي وزراعي وفكري، وهو يصدر للعالم كل ذلك، احتاجوه أم لم يحتاجوه، لذا يفرضون على العالم قضاياهم ومعاناتهم، ومنها (الشك في كل شيء)، وما دام (المعلم) يشك ويتشكك فليس من حق (التلاميذ) إلا (المتابعة) والرقص على قرع الطبول أو نقر الدفوف.

د. حسن حنفي (المتلمذ) على الغرب يكرر أن للغرب مشاكله ومتاعبه ومعاركه، وهي ليست مشاكلنا ولا معاركنا، ولكن ما الحيلة مع الوكلاء؟؟

يقول د. حنفي: نظراً لأنه لا يوجد شيء (لا يمكن الشك فيه) لذا لم يعد هناك (يقين) ولا بناء لا يمكن هدمه، ولم يعد هناك شيء (ثابت)، من هنا اتسم الوعي الغربي (بالحيرة) وعدم الاستقرار، والبحث الدائم عن شيء لا يمكن تثبيته أو التأكد من وجوده، أو حتى من إمكانية إدراكه، بالرغم من (المناهج الحدسية) ووسائل التحقق (المنطقي والعلمي).

لقد اتجه الوعي الأوروبي إلى (بؤرة) لا يمكن تثبيتها، لذا أصيب بالحيرة الدائمة، صار (قلقاً) لا يستقر له حال على منهج أو موضوع أو نتيجة أو غاية، مرة يحاول بالعقل، وأخرى بالحدس، وثالثة (بالوجدان)، ثم لا يدرك إلا الأجزاء.

(تتكافأ) عنده الأدلة، ليعود من حيث أتى.... صارت العقلية الأوروبية (مكتسبة)، لكنها فقدت (فطرتها) ونورها الطبيعي، فخسرت نفسها، وإن توهمت أنها كسبت العالم، هذا القلق المستمر دفع نحو الكشف عن مذهب جديد، ليشبع رغبة آنية، ثم يتطور لينشئ مذهباً آخر جديداً وهكذا، فكل يوم يحمل جديداً ليصبح بالياً[1].

شك وتشكك، وجري -كأنه- خلف سراب، سقوط في «لا أدرية» معتمة، اقترب نهارها من ليلها؛ ولع بالجديد لا نهاية له!!

- شاهد من أهلها:

أكثر من مفكر وكاتب غربي يدق أجراس الخطر، بالنسبة للغرب وحضارته، فهذا الكاتب (هرسرل) في كتابه (أزمة العلوم الأوروبية) يقول: «إن أزمة العلوم الأوروبية إنما هي في حقيقة الأمر أزمة الوعي الأوروبي بالإنسانية، وقد تجلت هذه الأزمة في (المذاهب السياسية والأيديولوجيات والقيم الاقتصادية وفي الطاقة وفي الإنتاج والتسويق، وفي التضخم والتسليح والخطر النووي)، ويعبر عادة عن تلك الأزمة بمثل: انهيار الغرب، وسقوط الغرب، وانتحار الغرب، ونهاية الغرب»[2].

فإذا كان الغرب كذلك فماذا سيقدم للعالم؟

---

(١) حسن حنفي، موقفنا من التراث، ص٦٦٢.

(٢) نقلاً عن: حسن حنفي، موقفنا من التراث، ص٦١٨.

- للنجاح أكثر من أب، فمن يتبنى الفشل؟:

كل مؤسسة تعمل معرضة للنجاح والفشل، ولكل نتائجه وتداعياته، د. برهان غليون، يؤكد كثيراً على فشل (الدولة القومية)، وفي كل مشاريعها الاقتصادية والسياسية والثقافية والإدارية والتربوية..... إلخ.

١- على المستوى الاقتصاد، عجزت الدولة عن تكوين شروط (لنمو الإنتاج)، وتبع ذلك فشل خطط التنمية الوطنية، فتولد عن ذلك قيام نمط من اقتصاد (المضاربة) -نوع من الشركة- المستند إلى طبقة من (السماسرة) والمرتشين، همه الأول تأمين مصالحهم أولاً وأخيراً، فأدى ذلك لتركيز الثروة في أيدي قلة، وتبع ذلك ازدياد (البطالة) بأنواعها وإخراج لأجيال من سوق العمل الوطني، تتجه نحو (الهجرة) لبلاد أخرى... إنه فشل كبير يتعلق (بلقمة العيش)، وينذر بإحباط كبير، وتذمر عام....

٢- على المستوى السياسي، فقد أدى الفشل إلى (تجميد تداول السلطة) واحتكارها إلى (فساد القيادة السياسية) في البداية ثم تكلسها وتحللها، مع عدم إمكانية وجود ونمو (بدائل) لقيادات شابة، حتى صار الهدف الوحيد للفئة الحاكمة هو المحافظة على السلطة والثروة معاً، فدفع ذلك لتصاعد المعارضة، وهذا يدفع بدوره لتحول النظام إلى (نظام احتلال أجنبي)، ثم ليندفع لشن (حرب وقائية دائمة) ضد المعارضين والمجتمع، ويأخذ شكل (سياسة رسمية) قد تقود لحرب أهلية، تبدأ بشنها الدولة، حفاظاً على مصالح القائمين عليها، وهذا ما يفسر انتشار (القمع) في أكثر من دولة، وبشكل واسع.

٣- على المستوى الثقافي، تقوم الدولة بفرض (عقيدتها) أو مذهبها على الجميع، فتسقط الحوار وتصادر حرية (التعبير)، بل تمارس (الاستفزاز) للعقائد والأفكار وحتى القيم الاجتماعية، وتمارس الإرهاب النفسي والقهر حتى (للعواطف)، دافعة المجتمع نحو الشعور بالدونية، ليسهل إخضاعه وانقياده..

هنا تتحول الثقافة إلى (عقيدة سياسية) ومركز لتوظيف لحرب سياسية، مما يؤدي إلى شق الثقافة الوطنية إلى (تيارين) متعارضين: الأول وطني تقليدي، ممنوع من التعبير، والثاني حديث المظهر والشعارات، وهو مرتبط بالدولة، والنخبة الحاكمة، وهنا يسود الشعور بالحرمان والاستبعاد و التهميش، لدى قسم كبير من أفراد المجتمع... لقد صنعت الدولة (احتباساً حرارياً) – على شاكلة الاحتباس الحراري- عند هذا الحد تبرز نتائج الفشل للنظام الجديد، ومعه الإخفاق الكبير للمعارضة التقليدية بأنواعها من يسارية وليبرالية وغيرها، فيظهر الفشل في تبديل بنية النظام (المطلق)، ثم يظهر أخيراً انهيار (عقائدية القومية الشكلية)، التي تقوم عليها مشروعية العديد من هذه النظم، وهنا تتجه الفئات (المهمشة) والمنكوبة إلى (المخزون الإسلامي) لتكوين رأسمال شرعي للمعارضة، التي تزداد قوة واتساعاً وتنوعاً، يوماً بعد يوم...

إن الحديث باسم (الإسلام) له في السياسة مفعول (العودة إلى منبع القيم) التأسيسية للاجتماع العربي والإسلامي، في مقابل (الاجتماع الحديث المتهاوي...»[1].

---

(١) نقد السياسة، ص٢٧٧-٢٧٩.

أشعر أن د. غليون يقوم (بمسح) لأكثر من نظام عربي، شهد (بريقاً) وسنداً كبيراً من أكثر من قوة، لكن البريق ذهب وتحولت النار إلى مجرد (رماد)، وكل يوم يخسر النظام (صديقاً) ليكسب أكثر من عدو.

- قضايا في العداوة والصداقة:

يُروى أن أبا جعفر المنصور - وهو من مثقفي خلفاء بني العباس- طرح تساؤلاً، حول السقوط العاجل لدولة بني (أمية) قبل أن تكمل قرناً من الزمن؟ يظهر أن الإجابات لم تعجبه، فساق تفسيراً جاء فيه: كان لبني أمية أعداء وأصدقاء، أهملوا الأصدقاء ثقة بمودتهم، وحاولوا كسب الأعداء، وكانت النتيجة أنهم خسروا الأصدقاء ولم يكسبوا الأعداء.

«كارل شميدت» - الرئيس الألماني السابق- حين كان يدرس في الجامعة طرح (نظرية) ملخصها: «أن السياسة تقوم على التمييز بين العدو والصديق، وأن العدو يجب تدميره لكونه شريراً، سيستخدم قوته لضربنا اقتصادياً، وسيستعمل السياسة بشكل أفضل، فإذا ألحقنا الدين بالسياسة فسنجعل العدو يبدو وكأنه (ضد الرب) وضد الحقيقة، وضد العدل، وهذا يقوي السياسة، وكذلك سيقوي من عزم الأمة على تدمير العدو، لكن هذه النظرة (تنأى) بالسياسة عن الاعتدال والتوسط، وتقودها إلى التعصب والتطرف، وبهذه الطريقة فالنهج (المحافظ الجديد) هو في غاية التطرف، فإقحام الدين

في السياسة يجعل من الأخيرة أقل اعتدالأ، مما وصل إليه منهج المحافظين التقليدي»[1].

الملاحظات الأخيرة للكاتبة الكندية (رجيتا ساسكا أشوان)، ومن تعليقها أن «كارل شميدت» كان عالمأ ينتمي إلى (اليمين الألماني) المتطرف، ومثله (شتراوس)، ويحمل نفس الفكرة في وجوب التمييز بين الصديق والعدو، ...

فإذا صرنا نتجاهل الصديق، ونعمل لكسب العدو، فإن مقولة المنصور ستصدق فينا تماماً.

ولعل الأسوأ من كل ذلك عدم تحديد الصديق من العدو، أو القول: كل من ليس معنا فهو عدونا...

- أمريكي: الليبراليون قلة وشرعيتهم أقل:

الكاتب الأمريكي (جون والترمان) يتحدث عن الليبراليين ومستقبلهم في الشرق الأوسط، نشرته (قضايا النهار)، وترجمته للعربية (نسرين ناصر)، يقول الكاتب: أنه خلال زيارات (باول)، وزير الخارجية الأمريكية السابق للقاهرة يخصص وقتاً للتحدث إلى مجموعة من المصريين من ذوي التفكير (الليبرالي)، ومعلوم أن الليبراليين يحظون باهتمام كبير، وربما لا مثيل له، من قبل بعض (صانعي القرار والمسؤولين الأمريكان) من أمثال (باول)، كذلك يدعو دبلوماسيون في واشنطن ولندن وباريس وعواصم أخرى (ليبراليين) لتناول

---

(١) اختطاف كارثة، ترجمة أبي بصل، ص ١٣٢.

الطعام...؛ لأنهم يرون فيهم آمالاً أساسية لتحقيق (الإصلاح) في العالم الإسلامي، وغالباً ما يحصلون على (مبالغ طائلة) لتموين منظماتهم والتي لا تتوخى الربح.

بعض الليبراليين معروفون جداً، والبعض أقل شهرة، إلا أن (الدعم المتزايد لهؤلاء يضر بهم كثيراً، فبدلاً من ترسيخ مكانتهم في بلدانهم، تؤدي هذه (المظاهر) العلنية لدعمهم إلى تهميشهم أكثر فأكثر، وفي النهاية يؤدي (الدعم المضلل) إلى عرقلة (التغيير) نفسه، الذي يطالب به الغرب.

إن هؤلاء الليبراليين يتركزون في الجامعات والمنظمات الأهلية، وفي العادة هم يجيدون الإنكليزية والفرنسية، وهم مرتاحون للغربيين، وكذلك الغرب يرتاح لهم، إنهم يتقدمون بالسن، ويعيشون في عزلة أكبر، وأعدادهم في تناقص، وتأييدهم (ضئيل) بين السكان، أما (شرعيتهم) فأقل – في نظر مواطنيهم- وقد صاروا يمثلون (أفكار الماضي) الفاشلة، بدلاً من آمال المستقبل (الجريئة)... إنهم يخسرون (المعركة) بسرعة، ولا يفوزون بقلوب الناس ولا بعقولهم.

أما الاهتمام الغربي فيلصق بهم أكثر وأكثر صفة (المتواطئين)، كذلك تضعفهم الجهود الغربية لإضعاف العالم العربي، والمساعدة في إخضاعه.

إن تخصيص طاقة كبيرة للتحدث في المؤتمرات والمنابر الغربية، كل ذلك يلهيهم عن العمل في مجتمعاتهم الخاصة، ومعظمهم يأمل أن تسلمهم أمريكا قيادة بلدانهم، في حين توجد مجموعات عربية (محافظة) تنفذ بفاعلية برامج

مبتـــكرة، (مثيرة للإعجاب) هدفها تقديـــم سلسلة من الخدمات، التي تؤثر في حياة النـاس اليومية...... الليبراليون يعتبرون مهمتهم قد انتهت وأنجزت حين يكتبون مقالة، أو يتحدثون أمام مؤتمر أجنبي[1].

بالمناسبة أذكر أن شخصية عربية (مسؤولة) كانت تتوسل إلى صديق كي تكف أمريكا عن مدحه، فكلما كثر المدح (احترق الرجل)، وبالمناسبة فإن علمانياً خليجياً – حتى نخاع العظم- حدثت له متاعب في الخليج فعرضت إسرائيل عليه أن يهاجر إليها!!

- علاقتنا بالغرب:

هناك من أهلـــنا من يرفض (الغرب) عـــلماً ومعـــرفـــة وحضارة، جملة وتفصيلاً، ويعتقد أن الخير كل الخير أن يعيش بعيداً (لا أرى القرد ولا القرد يراني).

ومن أهلنا من يعشق الغرب، ويعتقد وجوب الأخذ عنه، وما لديه من حلو ومر –كما يقول د. طه حسين - ومن يذهب لأبعد من ذلك، ومن يتوسط بينهما، فيطلب الإفادة والاستفادة من المفيد النافع.

د. حســن حنفـي يرسـم هـذه (العلاقـة) في كتابـه (مقدمـة في علـم الاستغراب) فيقول: تحولت مساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى (وكالات حضـارية للغـير) وامتـــداد لمذاهبـه: اشـتراكية، ماركسـية، ليبراليـة، قوميـة،

---

(١) صحيفة المدينة في ٢٥/٧/١٤٢٥هـ.

وجودية، وضعية، شخصانية، بنيوية، سريالية، تكعيبية... إلخ، حتى لم يعد أحد قادر على أن يكون مفكراً أو عالماً أو فناناً، إذا لم يكن له (مذهب) ينتسب إليه.

بل وضعنا أنفسنا أطرافاً في (معارك) لسنا طرفاً فيها، وتفرقنا شيعاً وأحزاباً، كما تفرق القدماء، لكن فرقتنا هذه المرة لم تكن موقفاً من الذات، بل تبعية للآخر، فضاعت (وحدة الثقافة الوطنية)، بينما يبحث الكل عن (أصالة) ضائعة، وليجدها البعض في (الفنون الشعبية)..... وعادة ما يتحول (التغريب الثقافي) إلى موالاة سياسية للغرب، مما يسبب لاحقاً ثورة الشعوب الوطنية، تأكيداً للهوية والثقافة الوطنية، وفي جدل مستمر بين (الأنا والآخر)....»[1].

لقد تحالفنا مع الغرب – في الحرب العالمية الأولى– فكافأنا باستعمار بلادنا، حاربناه حتى رحل من الباب، ليعود من الشباك، فمن يحارب الاستعمار الثقافي، وقد صار له وكلاء، حتى في مدافن الموتى، وبين الشحاذين، وكبار اللصوص، وزعماء السلب والنهب؟

د. حنفي يكرر – دون ملل – أننا «حاربنا الاستعمار حتى ذهب، لكنه عاد من خلال الاستعمار الثقافي، وهكذا انتشر (التغريب) وجرى احتلال العقول والقلوب، وهو مما نعانيه اليوم وبين الطبقة العليا...»[2].

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب، طبعة ١٩٩١م، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٤.

- لماذا ينجح الآباء ويفشل الأبناء:

يطرح د. حنفي تساؤلاً يتعلق بنجاح (آبائنا) في النقل الحضاري، بينما فشلنا في هذا الميدان، فيقول: «لماذا نجح قدماؤنا في احتواء (الآخر وتمثله) والرد عليه، وإكمال نواقصه، وحذف الزيادة منه، ولماذا لم ننجح بعد (حالياً)، بحيث احتوانا الآخر، حتى (ذبنا) فيه؟»[1].

وأجيب باختصار: لقد كنا أقوياء أولاً، وثانياً كانت لنا (مرجعية) نثق بها، وكنا (تلاميذ) نجباء.. أما اليوم فنحن ضعفاء (متشاكسون) لا مرجعية تتفق عليها ونثق بها، وأخيراً نحن (زبائن) لا غير، التلميذ يتعلم على أستاذه، وقد يتفوق عليه، يكمل نواقصه، يصوب أخطاءه، أما (الزبون) فغير ذلك، كلياً، إنه لا يعرف سوى (قبض البضاعة) ودفع الثمن، والذي قد يكون مضاعفاً!!

التلميذ (النجيب) قد يتقدم فيحتل كرسي أستاذه، أما الزبون فيعيش هو وأحفاده ويموتون وهم مجرد (زبائن).

الشعب الياباني تتلمذ على الغرب، واليوم يتفوق التلميذ على أستاذه، فهل يأتي يوم يتساوى التلميذ النجيب مع الزبون؟ هيهات!

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠.

- عندما تغيب المرجعية:

لن تعيش أمة عيشة كريمة بدون قيادة أو بدون مرجعية، وأشنع من ذلك أن تكون لها قيادة، لا تحسن التفرقة بين العدو من الصديق، فقد تصادق عدوها، وتعادي صديقها، لكن الأقبح من هذا وذاك أن تتخذ أمة ممن استعبدها وحاربها وناصر وما يزال عدوها عليها، تتخذ منه مرجعية، ويكون لها بين أبنائها (وكلاء) يسبحون بحمد (السيد) ليل نهار، ويدعون الأمة سراً وعلانية (لموالاة) هذا (السيد)!

د. برهـــان غليون يتحدث عن (المرجعية) فيقول[1]: «لا تستطيع أمة أن تتمتــع (بإرادة ذاتية) وقـــوة معنـــوية، ورؤية نظرية، وقاعدة معيارية فعالة، إلا بقدر ما تنجح في تأسيس (مرجعية ثابتة) عميقة الجذور مرتبطة بتـــاريخها، أو بتجربتها التاريخية، كذلك لا تستـــطيـــع جماعة أن تبني نشاطها أو تؤسس وجودها على مرجعية (خارجية) مستمدة من خارج تاريخها، ومستقاة من ثقافة أخرى... تجعل من (رمز استعبادها وتهميشها) مرجعاً لنهضتها الجديدة».

وأسأل: هل توجد (شواهد) تنقض (نظرية غليون) قديمة أو جديدة، وما هي، وفي أي شعب أو أمة؟

---

(١) اغتيال العقل، ص ١١٠.

- عندما يصير العلم نقلاً والعالِم مترجماً:

د. حسن حنفي يشتكي من (الاغتراب)، ويشاركه د. برهان غليون وأمثالهم، يقول د.حنفي: «لقد أصبحت (الثقافة الغربية ثقافتنا، وهو أمر يدعو للانتباه، فالعالم عندنا من يعرف التراث الغربي، والعلم هو المعلومات الوافدة من الغرب، والإنسان لا يكون (مجدداً) إلا إذا تعلم الوسائل الغربية، لقد صار العلم نقلاً، والعالِم مترجماً، والمفكر عارضاً بضاعة الغير، ووجدت طبقة (هشة) من المذاهب والأفكار والنظريات (طائرة) فوق الواقع، ليست مستمدة من الموروث القديم، ولا نابعة من الواقع المباشر، وثمة (تنظير)، تتضارب المعلومات وتتعارض النظريات، بعضها ينفي بعضاً، فيحتار الباحث أمام العديد من المذاهب والأفكار المنتشرة فوق الواقع، والمجتثة الجذور من أرضها، والمنتزعة من واقعها الخاص، ماذا يختار، وما مقاييس الاختيار؟ لقد زاد الكم زيادة رهيبة، ومع ذلك مازالت الفكرة الأساسية غائبة...». [1]

إنه واقع محزن، وربما ضياع مؤلم، ومستقبل غامض، فهل من دليل يدل على الطريق ويأخذ بالأيدي؟

د. برهان غليون (يشكو)، والشاعر يقول:

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة

ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

---

(١) مقدمة في علم الاستغراب، ص٧٠.

فماذا في (كأس) الغليون؟

يقول د. برهان: «العقلانية العربية عندما تجعل من العلم (أساساً) لصحة معارفنا، بدلاً من أن تجعل من الانخراط في التجربة – أي فحص ومعاينة الواقع وسيلة لمراجعة (النظم المعرفية) والتحقق منها –اكتفت عقليتنا بـ(الاستهلاك العلمي)، بدلاً من ممارسة (الفعل العلمي) الحقيقي، لذا نقول: إن العقلانية العربية، التي تحولت إلى (علموية)، أي أيديولوجية تبشر بالعلم والامتداح الدائم له، وليس إلى منهج لمقاربة الواقع، فصارت منطلقاً نظرياً (للتدمير)، تدمير الواقع الحقيقي، واقع (الحداثة)، وهكذا صار المفهوم هو المتحكم بالواقع، بدلاً من أن يخضع له، ويتطور على ضوئه، وهذا هو مصدر (الاستلاب) النظري، وفقدان التجربة العلمية والنظر العلمي، وهكذا صارت (العلموية) أو الاستقواء بالعلم قاعدة (تحطيم) المعنى العلمي الحقيقي واستبعاده، وما علينا إلا أن نأتي به، أن ندخله عندنا، أن نفسح له المجال ونرعاه، وبذلك (حرمنا) أنفسنا من كل قدرة على مناقشته، أو الإضافة إليه.

لقد أصبح (معيار المعرفة اليقينية) عندنا هو قرب هذه المعرفة من معرفة (الآخر)، فهي بقدر ما تكون مكتوبة (بلغته)، مستمدة من أقواله ومناهجه ومعاييره، مرتبطة باسمه وبمعاهده وكتبه وشهاداته، فهي معرفة (حقة) وحقيقية، لذا صار (الصراع) على الشهادات (الأجنبية)، ومظاهر المعرفة الأجنبية، هي أساس التنافس بين الباحثين، لاكتساب (السلطة المعرفية) الثقافية.

إن نجاح (المثقف العربي) يتماشى أكثر مع انسجام أفكاره وأحكامه وأسلوب كتابته ولغته واهتمامه، وتطابق كل ذلك مع (المستشرقين) أو المتكلمين الغربيين والباحثين عن المجتمع العربي».[1]

وبهذه المناسبة أذكر واقعة تمثلت في رفض طلبة عراقيين الابتعاث للدراسة بمصر.

- الابتعاث للغرب ومصر:

كانت دائرة (الابتعاث) في وزارة المعارف العراقية تختار سنوياً مجموعة من الطلبة، توجه دارسي الطب مثلاً إلى إنكلترا، والهندسة إلى أمريكا، ووجهت دارسي الزراعة لمصر، وكانت مفاجأة أن رفض الطلبة التوجه إلى مصر، وقالوا: نبتعث للغرب وإلا فلا حاجة للدراسة بمصر... وهكذا استغنوا عن الابتعاث!

ومنذ أيام قليلة زارني رجل عربي، وخلال الحديث قال: لقد عزمت على دراسة شعر (المعلقات) دراسة نقدية، ولكوني لا أستطيع دخول بعض البلاد العربية، فقد توجهت إلى بريطانيا، لأسجل للحصول على شهادة الدكتوراه، وجاء الجواب: إن مثل هذه الدراسة الأفضل أن تكون في الجامعات العربية، فهي الأقدر، وراحت الجامعة البريطانية تتصل بالجامعات العربية، وحصلت على قبول (للدارس)، وهكذا عاد العربي للجامعة العربية...

---

(١) اغتيال العقل، ص ٢٢٣.

ولكن بتـوجيه من جـامعة بريطـانية، ومثل هذا يمكن أن يقال في (تحقيق) الكتب العلمية والنصوص القديمة، فالجامعات العربية هي الأعرف والأفضل، فهل من سامع؟

- طالب فقه.. مشرف شيوعي:

أرسلت (السودان) طالباً يدرس الفقه إلى بريطانيا للحصول على شهادة الدكتوراه، ومن نكد الدنيا أن تعين الجامعة البريطانية أستاذاً (شيوعياً) ليشرف على رسالة (فقه).

سمعت الزميل الدكتور يقول، في جلسة لمجلس القسم: إن الدكتور الشيوعي قال: أنا شيوعي لا أؤمن بالله ولا بالأديان ولا بالفقه، ولذا سوف يكون إشرافي (فنياً) بحيث تخلو الرسالة من التناقض أو الفجوات، وأما ما فوق ذلك فأنا لا أعترف ولا أقر بشيء مما تكتب في رسالتك..

طالب عربي يكتب رسالة في التفسير، يكون المشرف عليه المستشرق اليهودي العنصري (جولد زيهر) فما المحصلة؟

أحـد طلبتنا في كلية التربية لإنكلترا يدرس (الحديث) وفي اللقاء الأول مع المشرف سأل الطالب: هل لديك استعداد للاعتراف بخطأ السنة، ولما استنكر الطالبُ هذه (البداية) رفض الإشراف عليه.. إن عقدة (الخواجا) هي التي تحكمنا.

- مستشرق وآية التيمم:

يذكر العقاد، يرحمه الله، أن مستشرقاً راح يشرح آية التيمم: ﴿... فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾ (النساء:٤٣).

فأخذ المستشرق القاموس ونقل: تيمموا: اقصدوا؛ صعيداً: الصعيد جنوب مصر... فصار المعنى: على من يريد الصلاة ولا يجد ماء فعليه أن يقصد جنوب مصر!

ذلك أنه لم يفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فالمعنى اللغوي كما ذكر، لكن الصعيد في الآية (ما صعد على وجه الأرض) وليس صعيد مصر، وإن كان اللفظ (مشتركاً)، ومثل هذا الخطأ لا يقع فيه طالب علم مبتدئ.

التحديث وشروط النهضة

- التنمية.. التنمية.. قبل خراب البصرة:

الفقراء والأغنياء يتصارخون (التنمية التنمية) وإلا، هرول الكل على طريقة (أشعب).. يقال: إن أطفالاً مشاغبين أتعبوا (أشعب) فأراد صرفهم فاخترع (قضية) وقال: هناك طعام يطبخ ويوزع على الفقراء، فهرول الأطفال نحو ذلك البيت، ولحق بهم (أشعب) وهو يقول: ربما كان هناك طعام...

الكل يطلب التنمية ويتحدث عنها، كمثل الحديث عن الدمقراطية، حتى عند من لا يحسن النطق بها (سليمة).

والدكتور عبد الوهاب المسيري، وهو الذي (حرر) (إشكالية التحيز) يرى أن (الغرب) قد بلور علاجاً للنمو الاقتصادي، بحيث تكون (التنمية) كبرى الأهداف للمجتمع، وكذلك صوروا أن نموذجاً واحداً تتجه إليه سائر البلدان، من هنا بذلت الكثير من دول العالم الثالث جهوداً كبيرة اعتماداً على (النموذج الغربي) للتنمية، والمفارقة أنه بعد انسلاخ أكثر من ربع قرن، فقد تبين بشكل واضح أن الطريق (مسدود)، وأن خطط التنمية الغربية لم تحقق أهدافها في (الأغلب)، بل راح الكثير من هذه الدول (يئن تحت وطأة الديون،

بالإضافة للتمزقات الاجتماعية والحضارية، مع الكثير من مشكلات في البيئة وسواها جعلت الكثير يعود للذات (بالمعنى الحضاري)...»[1].

فإذا لم تنجح التنمية – بحسب مدلولها الغربي- فما هو المطلوب إذن؟ نهضة شاملة مثلاً؟ وما شروط هذه النهضة؟.... وسؤال آخر أكبر: كيف نقرأ تخلفنا؟

- قضية التخلف والأسباب الأساسية:

لا يجادل أحد بوجود (بلايين) من البشر يضربهم التخلف، بعضهم لا يحسن توفير طعامه ولا سكنه، لا يحسن زراعة ولا صناعة، مطلوب من الآخرين أن يطعموه ويسقوه وإلا مات، فما هي الأسباب وراء (التخلف)؟ وهل هي داخلية أما خارجية، أم من الاثنين معاً؟

إن الغرب مثلاً يعد من لوازم (نجاح التنمية) وجود رأسمال، وموارد بشرية تعمل لتطوير البحوث، مع أنظمة للمعلومات، فهل توفر ذلك يكفي (للتخلص) من التخلف؟

د. عبد الوهاب المسيري لا يعتبر هذه (العوامل) كافية، نظراً لوجود أزمة (حادة) دمرت النسيج الاجتماعي الحضاري، مع انهيار الوحدة الحضارية، وفقدان الدوافع للوجود والازدهار، وهنا تتجمع عوامل داخلية لتضاف إلى عوامل (خارجية)، وهنا يتساءل د. المسيري: كيف يمكن أن نستعيد وحدتنا

(١) إشكالية التحيز، معهد الفكر الإسلامي العالمي، ١/٧٥٢.

وفعاليتنا الحضارية؟ وكيف نعيد بناء (الذات) بالمعنى الحضاري؟ بعد ذلك ينتقل إلى (الشروط اللازمة للنهضة)... وسأحاول أن أوجز ذلك بما تسمح به طبيعة البحث[1].

أولاً: جوهر التحديث:

إن جوهر التحديث يتطلب تحقيق الذات – المعنى الحضاري- وذلك بالقيام بالتحولات الحضارية اللازمة، لما تتطلبه (الفروض) العلمية والتقنية، التي تمثل المداخل الضرورية للبقاء في المحيط الاقتصادي والعسكري الدولي، والاستفادة منها، والعمل على تجاوزها حضارياً، والعمل لإيقاظ القوى الموحدة في النسيج الاجتماعي الحضاري، مع البداية من الإنسان، والثقة به، والاعتماد عليه في إحداث التحولات اللازمة، فالإنسان هو حجر الأساس، نعم الإنسان هو حجر الأساس، هو باني الحضارة، وهو القادر على هدمها، وإذن فلتكن البداية منه، وأن يقتنع بذلك...

ثانياً: ترابط الهوية الحضارية بفعالية الإنسان:

إن ترابط الهوية الحضارية واستمراريتها مع قدرتها على (التجدد) رهن بفعالية الإنسان والقدرة على التعبير عن ذلك، مع نقل (المضامين الحضارية) عبر الأجيال، وهذا ليس رهن بالقدرات الإنتاجية فقط، بل ينبغي تنشئة الفرد كفاعل حضاري، وذلك باستيعابه لمضمون حضارته أولاً، كي يستطيع

---

(١) المرجع السابق، ١/٧٧٠، ١/٧٩٠.

المشاركة في (البناء الجديد)، كما ينبغي نقل (التراث الحضاري) – بما تمثله خبرة الأجيال– في تعاملها مع الطبيعة، ومع الحضارات الأخرى، ودون ذلك سوف يستحيل الاستمرار، وتنقطع المسيرة..

سمعت أن في اليابان أسواقاً تبيع أجهزة مصنعة مع نموذج (كتلوج) يأخذه الصبي وعليه أن يركبها ويشغلها، وهذا تمرين جيد، فبدلاً من شراء جهاز أو لعبة (كاملة التصنيع والتركيب) تعلم الصبي كيف يركب، بدلاً من كيف (يحطم) لعبته؟

ثالثاً: المطلوب نهضة وليس مجرد تنمية:

سار النموذج الغربي في التحول ابتداء من النهضة، ثم الثورة الصناعية، فالثورة العلمية التقنية، هذا (النموذج) غير مرغوب لنا؛ لأنه غير متسق مع البيئة، والنهضة التي نتطلع إليها تختلف عن نهضة الغرب، ليس في الغايات فقط، لكن بالوسائل أيضاً، فالأهداف ينبغي أن تكون مشروعة وكذلك الوسائل، ولا يكفي واحد منها..

رابعاً: حلم الغرب كان الرفاهية:

أقصى أحلام الغرب أو المشروع الغربي الوصول (للرفاهية المادية) كهدف أسمى، لكن ذلك ليس من أحلام حضارتنا، التي ترى الحياة الدنيا متصلة بالآخرة – ومجرد مقدمة لها– كذلك فالحاجات المادية ليست منفصلة عن الحاجات الروحية، والمطلوب (ضبط النفس) والاعتدال في الملذات الحياتية..

إن مضمون الحضارة عندنا (تحرير الإنسان) من كل أصناف العبودية، السياسيـــة والاجتماعيـة والاقتصـادية وحـتى الفكريـة، إذ لا عبوديـة إلا لله، الواحد الأحد...

خامساً: الكون وسيلة سخرها الله للإنسان:

الإنسان لم يخلق الكون، ولذا فإن تصرفه يجب أن لا يخرج عن أمر الله، فلا يقبل منه العبث ولا الإضرار به مثلاً، كذلك غير مقبول أن يحل الإنسان محل الله، أو ينازعه أو يغتصب بعض حقوقه، نحن جزء من هذا الكون الواسع، وإن كان خلق لنا كوسيلة، ونحن ننغلق على عالمنا الأرضي المحدود، الذي ندركه، ونعلم حدود، ودورنا فيه، فلا نتجاوزه.

سادساً: الزمن الدنيوي محدود:

إن الزمن الدنيوي محدود، لكنه غير منقطع عن الزمن السرمدي، يقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ (النجم:٣٩-٤١)... إن قطع الحياة واعتبارها كل شيء مرفوض، فما هي إلا ساحة عمل لما بعدها، ومزرعة لغيرها، وتجاهل الآخرة قد يحوّل (الحياة) إلى غابة، (الحق) فيها للأقوى...

سابعاً: الفرد في الإسلام ليس مؤسسة:

للفرد في الإسلام وضع مختلف عنه في حضارة الغرب، فالفرد في الإسلام ليس مؤسسة قائمة بذاتها، تحمل مهارات وقدرات ورغبات، إنه (مخلوق

مستخلف) في عقله ووجدانه وحواسه وبدنه ووقته، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ..... ﴾ (البقرة:٣٠)، والنفس في الإسلام ليست (الإطار) المرجعي للإنسان، فهي - في حضارتنا - تحمل نوازع خيرة وشريرة، لذا فنحن مطالبون بنصر الخير على الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠)؛ ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ...﴾ (الرعد:١١).

ثامناً: النشاط العلمي ودوافعه:

يختلف النشاط العلمي في دوافعه عندنا وعند غيرنا، فالإنسان الغربي المتطلع دوماً (للسيطرة والتسيُّد) على الآخرين وحضارتهم، وعلى الطبيعة ليحقق أقصى معدل ممكن من (الرفاهية المادية) لذا راح ينتج ما يحتاج وما لا يحتاج، وقد يضع عوائق أمام إنتاج الآخرين، كما قد يحجب العلم عن غيره.

والعلم في الإسلام (أمانة)، فإذا قصد به وجه الله صار (عبادة)، إننا بحاجة إلى (بلورة) نموذج خاص (للعقلانية) يحكم مسار نشاطنا وإنتاجنا، فالعقلانية الغربية في العلم والتقنية تعتمد الإعلاء من حافز (الربح)، ومثل ذلك (السيطرة) على الطبيعة وقهرها -كأنها عدو- وما تسببه الدول الصناعية من تلوث راح يهدد الحياة البشرية كلها، بينما ينظر الإسلام للطبيعة كشيء سخره الله لخدمة الإنسان، لذا عليه عدم الإضرار به، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ (لقمان:٢٠)، يقول عالم

الاجتماع «اريك فروم»: «.... ثمة عامل لا يقل أهمية، وهو أن علاقتنا بالطبيعة اتسمت ب(العداء الألد)، مع كوننا من نزوات الطبيعة، ظروف وجودنا تجعلنا جزءاً منها، وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها، ومن ثم فقد حاولنا أن نحل المعضلة معضلة وجودنا، وذلك بنبذ (رؤية الخلاص) والمتمثلة في الانسجام بين الجنس البشري والطبيعة، فاتجهنا نحو إخضاعها وقهرها، وتحويلها لخدمة أغراضنا، حتى أصبح هذا (القهر) مرادفاً (لتدمير الطبيعة).

إن روح العداء والإخضاع أعمتنا عن حقيقة: أن للموارد الطبيعية حدوداً يمكن أن تستنفد، ويأتي الوقت الذي (سترد) فيه الطبيعة على (جشع) الإنسان... إن المجتمع الصناعي (يحتقر الطبيعة)، بل يحتقر كل ما ليس من صنع (الآلة)، ويحتقر الشعوب، التي لا تصنع الآلة..

فالناس اليوم ينجذبون لكل ما هو آلي، وخصوصاً الآلة الجبارة، ولكل ما لا روح فيه، بل ينجذبون (للتدمير)». [1]

معلوم أن الإنسان صانع الحضارة، وناشر العمران، وفي ذات الوقت فهو عدو الحضارة، وناشر الحروب ومشعلها ومسعرها، مفسد للبيئة، ناشر للخراب، وكما شهدت البشرية ملايين خدمتها أعظم خدمة، فقد شهدت – وما تزال– طغاة عبثوا بالطبيعة، واستهتروا بحياة الأحياء من إنسان وحيوان ونبات... والله تعالى حين رسم للإنسان الأهداف من خلقه، حدد هدفين كبيرين: (عبادة الله تعالى)، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

---

(١) تفسير التاريخ، للباحث، الطبعة الأولى ١٩٩٣، ص ١٨٠.

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)؛ والهدف الثاني: (عمارة الأرض)، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ...﴾ (هود:٦١).

وإذا قامت العبادة على (النص) الصحيح، فإن عمارة الأرض تقوم على المعرفة الجيدة بعلوم الحياة، ودون ذلك لا يتصور عمارة الأرض، فهل يعبد بشر اليوم ربهم عبادة صحيحة، وهل يشتغلون بعمارة الأرض كما ينبغي؟

تاسعاً: الثقة بالنفس:

لا يتصور قيام نهضة في شعب أو أمة لا يثقون بأنفسهم ولا بثقافتهم ولا بحضارتهم، ولا بتاريخهم أو لغتهم، والنهضة لا تتحقق بالأماني أو الأحلام، ولا تقوم نهضة (بقرار) من حاكم، ولا تسقط كذلك بقرار من حاكم، فالنهوض يتطلب تكاتفاً من الحاكم والمحكوم، كما يتطلب عملاً دائباً.. وهنا نجد (خرافات) منها: أن (الجنس الآري) هو وحده باني الحضارة والمحافظ عليها، وهناك (أجناس) دنيا غير مؤهلة لإقامة حضارة، حتى وإن واتتها فرصة... خرافة كبيرة، فكل من واتته فرصة، وجدّ واجتهد أقام حضارة ونجح في ذلك، وبالمثل فكل من أهمل حضارته فقد عرضها للسقوط، ولعل من الخرافات - وما أكثرها اليوم؟ - أن يعتقد أناس أن بعض البشر (أصلح) بالطبع من غيره، ولذا فهم أرقى وأرفع، وأن (الطبيعة والتطور) صنعا البشر على هذه الصورة، ولذا فإن بعض الأمم يجب أن (تسود) والبعض يجب أن تكون خادمة مسودة[1]....

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

عاشراً: الحضارة لا تبدأ من الصفر:

البشر ينقلون خبراتهم وتجاربهم ومعارفهم عبر الحدود، وكل حضارة تخلف غيرها، تستفيد من سابقتها، وقد شهد عالمنا أكثر من (٢٦) حضارة، كما يرى المؤرخ البريطاني (توينبي)، كل منها فيه قديم وجديد، ذاتي ومقتبس، فإذا أنكر الغرب ذلك اليوم فقد عاش قروناً لم يكن لديه علم ولا معرفة، ولن تكون حضارة (اليوم) بدعاً مغايراً لكل الحضارات؛ وتفوق الغرب اليوم علمياً وتقنياً (ظاهرة حديثة) - بمقياس التحضر - ويوم أهدى الخليفة العباسي الرشيد إلى (شارلمان) ساعة، اندهش وشعبه، وربما اعتقد أن نفراً من الجن والعفاريت (تسكنها) وتحركها، وأن مكتبة (شخصية) لوزير عباسي (الصاحب بن عباد) كانت تحوي من المراجع والكتب ما يفوق كل مقتنيات المكتبات العامة في القارة الأوروبية بشهادة (ديورنت) في كتابه (قصة الحضارة)!

وأختم: من المسلَّم به أن اقتباس العناصر الحضارية هو أحد أهم شروط نمو الحضارة وازدهارها».[1]

---

(١) إشكالية التحيز، ١/٧٧٨.

أحد عشر: الحضارات مختلفة والمجتمعات كذلك:

الحضـــــارات المتوالية تتفق في أمور وتختلف في أخرى، والمجتمعات كذلك، والله تعالى خالق الكون يقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ.... ﴾ (هود:١١٧-١١٨)، ولا بد من أخذ هذا بنظر الاعتبار، وتبع ذلك (تنوع الخبرات) التاريخية، أما محاولة (محو الاختلاف) وصب كافة شعوب العالم في (قالب واحد) فهذا يعني (سلب) هذه الكيانات والشعوب لقدراتها الذاتية، على الحركة، وإهدار طاقاتها ثانياً، فعلى سبيل المثال، فالكثير من الشعوب الشرقية تجمع في سكانها (بدو وحضر) كما تجمع العديد من الأديان والخبرات التاريخية، ففي الهند - على سبيل المثال- (٣٦٠) ديناً، فهل يقاس ذلك بشعب صغير يستعمل لغة واحدة، وله عقيدة واحدة؟

إن الذين يريدون فرض قيمهم على العالم كله – بمجرد كونهم أقوياء- يفعلون المستحيل، وقد بدأت حضارتهم تتآكل من الداخل، وعليهم الاشتغال بترميمها، بدلاً من فرضها بالقوة على (الغير).

لقد كانت الإمبراطوريات تفشل وتنهار كلما توسعت، فهل من المفيد إعادة التجارب الفاشلة؟

معارك المستقبل.. وتجارب الذات

- فوكوياما ومعارك المستقبل:

بمناسبة معارك المستقبل، فهذا (فوكوياما) الياباني الأصل، والأمريكي الجنسية والولاء، وهو مثل (دون كيشوت) يضع العالم كله بكفة وأمريكا بكفة، فالعالم المسكين مسوق (جبرياً) نحو ثقافة استهلاكية، وعلى الدول أن تذهب طوعاً نحو الثقافة الكونية الاستهلاكية، ولن ينفع العناد... ويرى (فوكوياما) أن معارك المستقبل لن تكون أيديولوجية ولا اقتصادية، بل ثقافية وكفى، وإذا تساءلنا: أليس الأيديولوجية قسماً من الثقافة، إذ هي الأوسع؟

ثم ينسى ما تقدم – وبسرعة- فيقول: «إن الحضارات كافة دائبة على اكتشاف (هويتها) الحضارية، ولديها الرغبة والإرادة والموارد اللازمة (لصب) العالم في قوالب غير القوالب الغربية، والأشد خطراً الحضارتين الإسلامية والكونفشيوسية، لوجود دول مسلحة».[1]

---

(١) ضياء الدين، وميريل، الحلم الأمريكي، ترجمة فاضل جنكر، عام ٢٠٠٧م، ص٣٠٩.

- فوكوياما والخيارات الصعبة:

يعرض فوكوياما على العالم (خيارات صعبة محددة)، وكأنه عمدة لقرية من قرى الهند أو أفغانستان، فيطرح أغرب وأعجب خيارات[1]:

١- زوال العالم، دونما أثر، زوالاً كاملاً، مع الثقافة والقيم، ومن التاريخ والمستقبل.

٢- الاستسلام للتكنولوجيا (العسكرية الأمريكية) والتحول إلى مستعمرة لإمبراطورية (الخير).

٣- المبادرة لاعتناق (العقيدة الاستهلاكية)، والتحول إلى رقم أو رمز...

فهل يعتقد (فوكو) أن أمريكا خلقت العالم، وهي قادرة على هدمه؟

- بين الحاجة والوسيلة:

توجد حاجة فيسدها الصانع بوسيلة، إلا أن الجديد أن توجد وسيلة أولاً ثم تخترع لها الحاجة.

بالمثل توجد وظيفة ثم يجري البحث عن شاغل مناسب يشغلها؛ في العالم الثالث يوجد إنسان فتُنشأ له وظيفة كي يشغلها...

أدوات الزينة للنساء تعددت وتنوعت، ومع (فن الإعلان) راجت وكثرت، ومثل ذلك الملابس، ونوع البناء للبيوت والمحلات، كانت متطابقة مع البيئة،

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٨.

(فالطين) مثلاً بارد صيفاً، دافئ شتاء، استبعد لتحل مكانه (الخرسانة) الباردة شتاء الحارة صيفاً، فتطلب الأمر (التكييف)... كان الطعام يتناسب نوعاً وكماً مع البيئة، تغيرت القاعدة فجاءت السمنة وتكدست (الدهون) فاخترنا (الرجيم).. كانت البيوت والمساكن قليلة الطوابق والأدوار، فلم يحتج الناس للمصاعد أو رفع الماء، فلما كثرت الأدوار احتاج الناس للمصاعد والكهرباء لرفع الماء... يذهب الإنسان للبقالة فيشتري حاجته ويعود مسرعاً، اخترعنا (السوبر ماركت) فصار الداخل يشتري ما يرى مما يحتاج وما لا يحتاج... كان الناس يطبخون قليلاً ويتناولونه، فصاروا يكثرون من المطبوخ، فاخترعوا (الثلاجة) لتحفظه، كان الفائض يصل إلى الفقراء، فجاءت الثلاجة لتحرمهم منه.

كان الإنسان يسافر ماشياً أو راكباً حيواناً فيجد متعة في السفر، فلما اخترعت السيارات والطائرات تبخرت هذه المتعة.

كان لي قريب كبير السن، ذهب للحج وعاد بسرعة، سأله بعض زائريه: كيف كانت رحلتك في الطائرة: أجاب كنت متعباً فلما أخذت مقعدي في الطائرة بمطار جدة نمت، ولم أشعر حتى حطت الطائرة بمطار بغداد، فماذا رأيت!!

كان الفلاح يزرع الخضروات والفواكه، فنجد لها الطعم والرائحة، واليوم نجدها - طوال العام - بلا طعم ولا نشتاق لها.

كان الإنسان يتلذذ بأكل اللحوم، حين كانت الحيوانات تعيش بشكل طبيعي، فلما قامت مزارع الدواجن، وحل العلف الصناعي محل الطبيعي، عرفنا جنون البقر، ولحق به أنفلونزا الطيور، والله يستر من القادم الجديد... كان طالب

الأمس يحفظ جدول (الضرب) ويتعلم جمال الخط، واليوم فالآلة الحاسبة أراحته من الحفظ، ووفرة المطبوعات جعلت خطه كخط (الأطباء) لا يحسن قراءته أحد.

- مطلوب نشر الثورة الصناعية:

إن الظروف، التي مرت بها دول الغرب الصناعي، حيث سقط الإقطاع وقامت مدن صناعية استقطبت العمال، فنشأت الصناعة وتقدمت، وساعدت الآلة في التوسع الزراعي مع تحسين لنوعية البذور، فإذا أريد لدول العالم الثالث المساهمة (بالتصنيع) فلابد من أخذ ظروف مجتمعاتهم في ذلك، وإن أمكن أن يصبح العمال شركاء في الصناعة لضمان الإخلاص، واعتبار الشركة عائلة واحدة -كما في اليابان - فذلك خير، كذلك تؤخذ حاجة السوق بعين الاعتبار...

- تجربة أفريقية يابانية:

خلال رحلات إلى شرق وغرب أفريقيا علمت أن دولاً أفريقية طلبت من الشركات اليابانية لصناعة السيارات أن تؤسس مصانع لها في الدول الأفريقية، لا أن تصدر لها سيارات كاملة الصنع، والحجة: أن وجود مصانع صغيرة تمكن العمال من أهل البلد تعلم (الصنعة) لكن تصدير السيارات كاملة الصنع تحرمهم من ذلك.

- زخرفة المساجد في العراق:

طلب بعض الحكومات العراقية من المغرب توجيه عمال من أجل القيام بزخارف من (الجبس)، ولما باشروا العمل وصنع القوالب، وخلال أيام أتقن العمال العراقيون هذه الصنعة وأجادوها بشكل مثير للإعجاب.

- الإفادة من الخبرات المحلية:

لا يوجد بلد يخلو كليلاً من خبرات محلية، وهذه الخبرات ثمينة (فالتبن) مثلاً يمكن أن يكون أساساً لصناعة ورقية رخيصة، وسعف النخل مادة جيدة جداً لصنع (الفورمايكا)، وألياف بعض النباتات جيدة في صناعة الخيوط والحبال والأعلاف الحيوانية، والأسمدة والجلود لا يوجد بلد يخلو من تصنيعها.

بلد مثل (بنغلاديش) تعرف صناعة (الجوت) القنب منذ قرون، الجديد إهمال مثل هذه الخبرات كلياً.... مثل ذلك بناء المساكن، وتخزين المياه وأساليب الري، فهذه معارف قديمة يمكن تجديدها وتحسينها.

إن انتشار نمط الحياة الاستهلاكية الغربي، وانتشار المنتجات الغربية، وتوفرها تجعل الخبرات الوطنية تموت يوماً بعد يوم؛ كان الطب يعتمد على زراعة بعض النباتات والزهور والبذور، فلما انتشرت الأدوية المصنعة انتهت تلك الزراعة..

صناعة السجاد اليدوي كانت شائعة في العالم الشرقي، ووصل الحال أن (مهر) المرأة يرتبط بنوع السجاد، الذي تحسن حياكته، فجاءت الآلة لتحل مكان الإنسان، حتى امتلأت الأسواق بالسجاد الصناعي، على حساب السجاد اليدوي.

- إنشاء الطرق ينشط الزراعة:

لنا تجربة متواضعة، فأنا من عائلة تملك (ماكنات) ترفع الماء من النهر، والمحصول نتقاسمه مناصفة مع الفلاحين، في البداية كان جل المزروع (قمح وشعير وذرة) وكانت الأسعار قليلة، حاولنا أن نشجع الفلاحين على زراعة الخضروات والورقيات، فوجدنا معارضة قوية، فالحبوب هي طعام الفلاح، تشكل قوته وطعام حيواناته، ومع مرور الأيام أفلحنا مثلاً بزراعة الخيار والطماطم والبصل والبطيخ وأمثاله، واجهتنا مشكلة نقل (المحصول)، فالفلاح له دابة واحدة ولا يستطيع نقل المحصول للمدينة، فإذا كثر المحصول وهبط ثمنه تُرك في أرضه، وكم مرة رمينا (البصل) في النهر...

لقد حاولنا تقليص زراعة الحبوب، حتى إذا قامت الحكومة (بسفلتة) بعض الطرق، وصار نقل المحصولات ميسراً للنقل للعاصمة والمدن البعيدة، اندفع الفلاح يزرع الخضروات، أضعاف ما كان يزرع؛ حاولنا أن نتحول نحو زراعة القطن فلم نفلح..

كانت بذور الخضروات سيئة، والأنواع رديئة، فلما حصلنا على بذور جيدة تحسن الإنتاج وتضاعف، وتطلع الفلاح نحو آفاق لم يكن يتطلع إليها، مثل زراعة (الخس)، فلو جرى توجيه الفلاح لأمكن الارتفاع بالمحصول كماً ونوعاً، لكن الحكومة لم تكن تعير الفلاح كبير عناية، ولا الزراعة كذلك، وحتى النفط كان عائد (البرميل) أربعة سنتات، لقد كان الاستعمار ينهب أموال الفقراء لمصلحة الأغنياء في بلده.

- نحن والتكوينات القديمة:

الغرب ينظر لكثير من مكوناتنا الاجتماعية بأنها قديمة ومتخلفة ورجعية، مثل الأسرة والقرية والعشيرة، بل يعتبرها من عوائق (التنمية)، لذا فالمطلوب إزالتها، وليس العناية بها، لكنها عندنا موجودة وفاعلة، والإنسان يتلقى العقيدة والآداب الاجتماعية والقيم الأخلاقية من خلال الأسرة، لذا (فالمشرد) بعيد عن ذلك كله، والقبيلة يجمعها تضامن مطلوب ونافع بشرط أن لا تكون (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).

إن الغرب (يختصر) المشكلات المعاصرة ويردها إلى مشكلة واحدة هي (نقص الموارد)، فتكون قضية (اقتصادية)، والاقتصاد صار علماً، والعلم علاج كل مشكلة، وكل قضية لا يحلها العلم -في نظر الغرب - فهي مشكلة (زائفة)، وهكذا تذوب السياسة، ويضحى بالأخلاق، وهكذا يتم تحرير القيم الغربية والتي تحمل الكثير من التعارض مع قيمنا الحضارية، وهكذا يجري التحول إلى قيام تقليد (أعمى) للنموذج الغربي، فنفقد ما لدينا من قيم، لنكسب مظهراً (متغرباً) بدون مضمون؛ قشرة (حداثة) والباطن مخالف للظاهر.

- نريد مزج ما عندنا مع التقنية الغربية:

ما عندما من أمور الزراعة والصناعة غير كافية، وما تقدمه التقنية الغربية لدينا تحفظات تجاهه، والمطلوب (مزج) بين ما عندنا وما تقدمه التنمية الغربية، والحياة أخذ وعطاء، وكل حضارات العالم فعلت ذلك، وإن كان بدرجات

مختلفة، البعض يدفعنا نحو اليأس: «خذوا التنمية الغربية كما هي أو اتركوها كلها»، فإذا تساءلنا: ما الدليل على صحة هذا (الطرح)؟ لم نجد جواباً شافياً.. أما التوقف عند حدود (ما نملك) ، فيحرمنا من بعض الفوائد والمنافع، وهذا (تحدٍ) نقدر حجمه، ماذا نأخذ وكيف نمزج؟ هنا مربط (الفرس)، نحن بحاجة لنقل (أدوات البحث العلمي)، لـــكنا لا نريد (فلسفة العلم) الغربي، لأنها تصادم الكثير من قيمنا، لقد ترجمنا معارف اليونان مثلاً، وتركنا آدابهم؛ لأنها وثنية تؤمن بتعدد الآلهة وتصارعها المستمر.

لنأخذ التجربة اليابانية، فقد نقلت النظم السياسية والاقتصادية الغربية لكنها لم تنقل النظام الاجتماعي ولا الإداري، كذلك أهملت الفلسفة، ومع ذلك ظهرت فيها بعض أمراض الحضارة الغربية، فراحت تستعمر -لأول مرة في تاريخها - بلاداً مجاورة، وأشعلت أكثر من حرب، كان آخرها الحرب (العالمية الثانية)، ودفعت ثمناً عالياً، حيث ضربت مدنها بقنابل نووية، وخضعت لأول مرة في تاريخها لاستعمار مباشر، لكنها - رغم كل الضغوط - لم تبتعد عن نظامها الإمبراطوري مثلاً، ولا نظامها الإداري، وحين انسحب جيش الاحتلال، هدأت البلاد، ورفضت النمطين الغربي والاشتراكي الشرقي، لتختط لنفسها النظام والنهج، الـــذي يناسبها؛ لقـــد حـــددت (بدقة) ما تأخذه من الغرب وما ترفضه، فكانت (تلميذاً) نجيباً، لكنها لم تكن زبوناً (معصوب العين).

لقد نجحت اليابان في استعمال (طرق الإنتاج الحديثة) دون أن تدمر الطرق التقليدية، فمازالت (الشركة اليابانية) تعتبر نفسها (عائلة) لها أسرارها

ومكانتهـا، ويعتـبر مـديرها (الأب) لهـذه الأسـرة، والشـركة اليابانيـة لا تفصـل عمالها وترميهم في الشارع، والمتقاعد منهم تفتح له محلاً، وابنه يحل مكانه، العامـل اليابـاني لا يـترك شركته لمكسـب، ولـو فعـل فلـن يجـد مـن يقبلـه، وهـو يحافظ على سمعة وأسرار شركته، كما يحافظ على كرامة وشرف عائلته[1]....

ويمكن القول : إن التجربة اليابانية تشكل نموذجاً جديداً، وكذلك التجربة الصينية والماليزية، ولم تتوقف التجارب عند التجربة الغربية، ولن تكون آخر تجارب البشر، وعلى (الوكلاء) أن يكفوا عن التغزل بالنموذج الغربي، فغزلهم يدفع لكراهة هذا النموذج...

- نريد إعادة النظر في التعليم:

التعليم وسيلة لصبغ الأمة بطابع محدد؛ كان لدينا تعليم موروث شـــاخ ولم نجدد في أهدافه ولا وسائله، وإلى جانبه تعليم (جديد) هو تقليد للنموذج (الغربي) في الأهداف والوسائل، تعليمنا الموروث مشرّق والثاني مغرّب، الأول زاهد في التجديد في أهدافه ووسائله، والثاني غير مستعد لإعادة النظر وإن ظهـر (عقمـه)، والسـؤال: ألا يمكـن إعـادة النظـر في النمـوذجين، مـع محاولـة الدمج، لإيجاد (نوع) يحمل روحاً، بحيث يعتبر (العمل العلمي) عبادة ويجـــدد في الوسائل، وما أكثرها اليوم؟

لقد كانت مدارسنا هي الأفضل، لكن عجلة الحضارة دارت وأسرعت وظلت مدارسنا كما هي..

---

(١) في أعماق التجربة اليابانية، للباحث، طبعة ٢٠٠٠م، ص ٨٠.

- الشيخ الكيلاني ومؤتمرات لوضع مناهج:

في القرن السادس الهجري قام الشيخ (عبد القادر الجيلاني) شيخ الحنابلة والصوفية، بعقد مؤتمرين، الأول: في العاصمة بغداد، والآخر في مكة، جمع فيه ما استطاع من مدراء المدارس والمهتمين، في زمن كان (الجمل) أفضل وسيلة (مواصلات)، فأعيد النظر في مناهج المدارس والوسائل، واعتبرت مدرسة الشيخ الكيلاني ببغداد (مدرسة عليا) يتوجه لها خيار الطلبة[1].....

مدارسنا الجديدة وجامعاتنا تعرف الكثير عن علم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والإدارة، لكن زادها (الإسلامي) قليل ويشبه (العدم) وقد يتجه لإثارة الشبهات، والوقوف موقف (العداء) من التراث والتاريخ وكأن روح المستشرق قد (تلبسته وتقمصته)، فالباحث يستبطن العداء وإن كان يتظاهر (بالحياد)، وهناك سوق (للنفاق) يحاول الشرقي الكاتب والباحث أن يرضى عنه (الغرب) ويتشرف بلقب (معتدل) أو متنور، أو غير أصولي، أما من يكتب السباب ... فيكرم أكبر تكريم!

أستاذ جامعي من الجزائر يقف في مؤتمر صهيوني ليعلن أن الجهاد رجس، وأن اللغة العربية متخلفة ميتة ليس لديها إلا (نتف) من الفقه والعقائد.

وأستعيد مقولة نيتشه: من يحتقر نفسه وأمته ينتحر، ومن يحتقر الآخرين فهو عنصري.

---

(١) ماجد عرسان، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، طبعة عام ٢٠٠٣م.

من أسباب الفشل

- النهوض ليس نزهة:

النهوض بالأمة ليس نزهة، ولا يحصل بين يوم وليلة، ولا تنهض أمة بقرار سياسي من أعلى، ولا بمجرد رغبة من أسفل، ولا بد من خطة سليمة، ووسائل عملية موصلة، ومن السهولة بمكان وضع خطط جيدة، ورسم أهداف مرموقة، لكن المطلوب فوق ذلك وسائل عملية، والناس عادة لا يختلفون كثيراً حول الأهداف الجيدة، لكنهم يختلفون حول الوسائل الموصلة والمؤدية، وفوق هذا وذاك فإن وضع ألف نظرية أسهل وأيسر من تطبيق واحدة، ذات يوم وضع (أفلاطون) خطة للعمل السياسي، أعجب بها أحد تلاميذه، وكان حاكماً، وعند التطبيق فشلت وكاد (أفلاطون) أن يدفع حياته ثمناً لذلك الفشل..

وكم حاكم فاشل رفعناه فوق الأعناق، لمجرد أنه يحسن الكلام أو يجيد التلاعب بالعواطف، وله جرأة على العباد، أو يحسن السب والشتم واللعن والقذف.

إن النهوض يتطلب الكثير من المعارف والإخلاص، والله تعالى يخاطب بعض أنبيائه فيقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨).

فإذا كانت الدعوة لله تتطلب الإخلاص والبصيرة، فما تحتاجه نهضة شعب أو أمة هو خطة محكمة، وأن تقنع الأمة بها وبجدواها، وأن تبذل جهوداً كبيرة لتسويقها والترغيب فيها..

- لماذا توقفت الحضارة الإسلامية:

الحضارة كالمخلوق (الحي)، تولد وتنمو وتنضج وتشيخ وتنهار، والفارق في (المدة) الزمنية، فعمر الإنسان مثلاً والحيوان قصير، وعمر الحضارة قد يمتد قروناً.

العرب خلال القرون من (٨-١٤) للميلاد كانوا الأفضل والأكثر تقدماً في العالم، وفي كافة الميادين، فلماذا لم ينجحوا في (العلم الحديث)؟

«توبي أ. هاف» في كتابه «فجر العلم الحديث» يحاول الإجابة عن هذا التساؤل، ثم يضيف تساؤلاً: لماذا انهار وتراجع الفكر العلمي والعمل في الحضارة العربية - الإسلامية، بعد القرن (١٣)، مع أن العلم العربي كان منذ القرن (الثامن) أكثر العلوم تقدماً في العالم، وقد تجاوز بكثير ما كان في الغرب والصين، وذلك في كل الميادين للبحث، ابتداء من الفلك والكيمياء والرياضيات والطب والبصريات؟

لقد كان للعلم العربي التفوق التقني على مدى زاد على (خمسة قرون)، فلماذا لم ينجب (العلم الحديث)؟

إن ما يطلق عليه العرب (علم الأوائل) كالعلوم الطبيعية، في مقابل العلوم الإسلامية والعربية كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والشعر واللغة، كل

ذلك كان بدافع من حب (الاستطلاع)، إضافة لدوافع (دينية)، بحيث بلغ أعلى مستوى للتقدم العلمي، لكن ذلك لم يكن بهدف خدمة (علوم الأوائل) لذاتها، فمن أجل (قسمة المواريث) مثلاً اعتبر (الحساب) موضوعاً مهماً للدراسة، ومن أجل تأدية الشعائر مثل الصلاة كانت الحاجة لتحديد (المواقيت)، ومن ثم استخدام (الهندسة)، ومثلها حساب المثلثات، بهدف تحديد (القبلة).

فإذا درست أسباب (تدهور) الحضارة الإسلامية فإن «هاف» يحدد أسباباً عنصرية عرقية، مع الطغيان السياسي، إضافة إلى وسائل تتصل بالبواعث النفسية والاقتصادية، فضلاً عن إخفاق فلاسفة الطبيعة العرب في تطوير (المنهج التجريبي)، وقد انبثق عن هذه العوامل الأساسية، عوامل أخرى فرعية، فالطغيان السياسي أفرز تعصباً دينياً تجاه (العلوم الطبيعية)، ونشأ ما يعرف بالعلوم (السرية) فصعد التصوف والحركات السرية (الباطنية) في القرون (١٢، ١٣) للميلاد».(١)

المعروف أن العرب بدأوا الترجمة في أواخر العصر الأموي، وجرى التوسع في العصر العباسي، وذكرت بعض (كتب التراث) أن راتب مدرس الفلسفة كان يومياً (ثلاثة دراهم) بينما راتب مدرس السنة (نصف درهم)..

أما تطبيقات العلوم في مواقيت الصلاة أو تحديد القبلة فلا عيب في ذلك، وهو تطبيق جديد، وأما التعصب فهو بسبب الحروب الطاحنة وكثرتها،

---

(١) فجر العلم الحديث، ترجمة أحمد صبحي، عالم المعرفة، العدد ٢١٩، ١/١٧٣.

فعدّ بعض المستشرقين حصول (٢٧٠٠) معركة كبرى مع الغرب، ومارست الجيوش الصليبية البربرية القتل والنهب ليس للمسلمين فقط، بل شمل نصارى (القسطنطينية) مثلاً، وذات يوم جمع الصليبيون ما لديهم من أسرى فقطعوا رؤوسهم ووضعوها على دواب ووجهوها إلى بعض مدن (الشام)، هذه الحروب الطاحنة مع الثورات الداخلية والانشقاقات صرف الجهود والأموال، ليس للعلوم والمعارف، ولكن للحروب والثورات، إضافة لانتشار الفرق من باطنية وغيرها، مثل الحشاشين والقرامطة، وكل ذلك جعل الجهود تتوجه بعيداً عن العلوم والمعارف.

والخلاصة: تمزق داخلي وانشقاقات وثورات شبه دائمة، وحروب خارجية طاحنة، فمن يهتم بالعلوم والمعارف؟

- ابن خلدون: عللنا والمسببات والعلاج:

كتب (د. محمد عمر شابرا) بحثاً باللغة الإنكليزية عنوانه: (علل العالم الإسلامي المعاصر: المسببات والعلاج)، وقد ترجمته للعربية (علياء وجدي) ونشر ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان: (الأمة وأزمة الثقافة والتنمية) استهلك البحث (٣٥) صفحة، وهو دراسة جادة وجديدة[1]...

يقول د. محمد عمر: «يذهب عدد من العلماء الغربيين إلى أن (الإسلام) لعب دوراً إيجابياً في (تنمية المجتمعات الإسلامية) في الماضي، فهو العامل

---

(١) علل العالم الإسلامي، ط١ (دار السلام، ٢٠٠٧م) ١/٣٩١-٤٢٦.

الوحيد المفسر لمجتمع (بدوي) اتسم بعداوات ضارية، وندرة في الموارد، مع طقس قاس، يفتقد متطلبات (النمو)، وقد استطاع - مع ذلك - أن يتطور بهذه السرعة، ورغم الظروف، وأن يقف بحزم ضد الإمبراطوريتين (البيزنطية والساسانية)، وهما الأعلى فكرياً ومادياً، وفقاً لآراء كل من (نورث وتوماس)، فقد بدأ هذا المجتمع في الازدهار في القرن (السابع) حينما كانت أوروبا عبارة عن مجتمع (بربري كبير)، وحتى القرن (العاشر)، يقول المؤرخ (توينبي): إنه لولا الإسلام لم يوجد ذلك الانتشار غير العادي للقوى الروحية الكامنة، التي حول بها الإسلام نفسه،... لقد قام الإسلام بتفعيل جميع عوامل التنمية تفعيلاً جيداً، فساهم في ارتقاء الأفراد مادياً ومعنوياً، وهم القوة الأساسية الكامنة وراء صعود أو سقوط أي مجتمع، كما غيَّر من نظرتهم للحياة بإعطائها (معنى وغاية)، كما وفر مؤسسات وقيماً معنوية (ميسرة للتنمية)، وصنع مناخاً ملائماً للرقابة، على نحو ساعد على تغيير خصائص المجتمع.... ولقد أقام الإسلام (نظاماً سياسياً) ذا توجه (خلقي) ينتخب فيه الناس (خليفة) يحكم وفق (الشورى) ويكون مسؤولاً أمام الناس، ومن ثم قدم إطاراً لما يسمى الآن بـ (الحكم الرشيد) لضمان العدالة والكرامة والمساواة واحترام النفس، فاستفاد الجميع من (التنمية) وخاصة الفقراء... فقد أقام الإسلام حكم القانون، وكفل حرمة الحياة والملكية، وكرامة الفرد، وأعطى مكانة أعلى، واحتراماً أكبر للمزارع والحرفي والتاجر، مقارنة بما كان لهم في الديانتين (المسيحية والمزدكية) .... لقد صنع وشجع حافز الأمانة والاستقامة والعمل

الـدؤوب، فـتراكم رأس المـال والعمالـة، ومعـدلات جمركيـة قليلـة، في منطقـة أفسـدتها العـداوات والقبليـة، والحروب المستمرة، بين الإمبراطوريات، مع قطع طريـق القوافـل والضـرائب العاليـة... لقـد كـان هـذا العصـر (الكلاسـيكي) للإسـلام، الـذي نضـجت فيـه تلـك الحضـارة الجديـدة، والتربيـة الأصيلة، التي ولـدت مـن خـلال احتشـاد العديـد مـن الأجنـاس والتقاليـد، كمـا تم استيفاء مطالب (التنمية)، التي أكد عليها كل من (نورث وتوماس)، وتعترف (شاتز ميلر) بذلك إذ تقول: جميع العوامل، التي مكنت أوروبا من النجاح، كانت متاحة (للإسلام) قبل ذلك الحين، وبوقت كبير... ونتيجة لذلك حدثت (دورة تنمية) اقتصادية كاملة، شملت الزراعة والتجارة والحرف، وأدت إلى ارتفاع جوهري في الداخل، لكل من الأفراد والدولة معاً..

ولقـد حـظي التعليم والبحث بدعم عام كبير، فأدى ذلك إلى تحسين في المهارات، وتنمية علمية ونهضة فكرية، وتوفر مناخ لما أطلق عليه (فليب حتي) صحوة فكرية كبيرة، شارك فيها العلماء في كافة المجالات، ومن مختلف العقـائد، ودون تمييز، وقد أمكن المحافظة على هذا (التفوق) ما يزيد على (أربعة قرون)، من (منتصف القرن الثامن- منتصف القرن الثاني عشر)، وعندما تراجع استمر الإسلام في تقديم (إسهامات) جوهرية، لما يقرب من قرنين على الأقل»..

استعراض أكثر من جيد، وبحث علمي متوازن، ينتقل الباحث بعده للحديث عن أسباب (التدهور)، وهذا ما يعنينا كثيراً.

- أسباب التدهور:

لكل من التقدم والتخلف أسبابه ومستلزماته، لذا فكل من أخذ بأسباب التقدم يتقدم، وكل من تضربه علل التخلف يتخلف، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، ولا بين آري وسامي، ويخدع نفسه من يتصور وجود شعب (مختار)، ولكن يوجد شعب (مختال) نرجسي معجب بنفسه، كأن الله تعالى خلقه من (طينة) خاصة، وفضله على سائر خلقة (تفضيلاً)، الحقيقة ليس هناك (محاباة) خاصة، بل سنن عامة للصعود والتقدم، وأخرى للتخلف والهبوط، وكل من أخذ (بسبب) جاءت النتيجة (وفق ما أخذ) ولا يظلم ربك أحداً..

يستعرض (د. محمد عمر) جملة أسماء لباحثين - مسلمين وغيرهم - يتناولون الأسباب وراء تدهور المسلمين، من بينها:

١- الانحلال الأخلاقي: ولمالك بن نبي، يرحمه الله، نظرية يرى فيها: إن الحضارة تبدأ روحية، فيها الكثير من الإخلاص ونكران الذات، تليها مرحلة عقلية (تنظر وتفلسف) المرحلة الأولى، فتنتشر العلوم والمعارف، ويبرز جانب (التحضر)، يعقبها مرحلة (هياج الغرائز) حيث يتجه الناس للملذات، وتتعفن الأخلاق، فتتدهور الحضارة وتنهار.

٢- فقدان الإسلام (لديناميكيته) وحركيته، فشاع التشدد والتعصب، وانقسم المجتمع، وكثرت الثورات.

٣- تدهور النشاط العلمي، وجمد النشاط الفكري، وقل الإبداع.

٤- توالي الحروب الداخلية والخارجية، وتعرض البلاد الإسلامية لغزوات خارجية متواصلة.

٥- كل ذلك دفع لإحداث أكثر من خلل مالي وأمني، فتناقص النمو والاستثمار.

٦- حدث تدهور في ميادين الزراعة والتجارة والحرف، مع ضياع للمناجم والمعادن النفيسة.

٧- توالي الكوارث الطبيعية كالمجاعات والأمراض الفتاكة...

وأختم بذكر (قواعد) رائعة للطرطوشي (الأندلسي) في كتابه (سراج الملوك) رتبها ترتيباً رائعاً فقال: «لا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل».[1]

فإذا جرى (تسريح) الجند بحجة عدم توفر المال، كما حدث قبل سقوط بغداد عام (٦٥٦) هـ، وإذا شاع وانتشر الظلم، فكيف تزدهر حضارة أو تبقى؟

- لماذا عجزنا عن العلاج؟

الإنسان يمرض فيعالج بالتداوي، والحضارة تمرض فإذا شُخّص المرض وجرى العلاج فقد تتعافى، والباحث (د. محمد عمر شبرا) يبحث عن جواب لفشل المجتمع عن علاج للأمراض، التي ضربته لدى المفكر الكبير (ابن خلدون)، فهو من كبار مثقفي زمانه، تتلمذ على (ابن رشد) الفيلسوف

---

(١) سراج الملوك، تحقيق د. جعفر البياتي، طبعة أولى، سنة ١٩٩٠م، ص ١٧٠.

المعروف، وقد جمع - ابن خلدون - بين الدراسة النظرية والاشتغال بالسياسة، فقد شغل وظيفة (حاجب) لحاكم (بجاية) في الشمال الأفريقي، لذا راح يبحث عن (أسباب العجز) في الحقل السياسي أولاً، فشخص السبب في الانتقال من (خلافة راشدة) إلى ملك عضوض، وهو يستلهم في ذلك ما ورد في (السنة)، فيرى أن القيم قد تراجعت، كما حصل خرق للنظم، وأسيئ استخدام موارد الدولة، فازدادت الضرائب، فوقعت (الدولة، والعدالة، والتنمية) ضحية، لذا تراجع تضامن الناس، كما تأثر (الحافز) للعمل والإنتاج، وكثرت النزاعات، وانقسم المجتمع إلى فئات متناحرة، فساد بسبب ذلك نوع من (الركود)، وهكذا فقد الإسلام (حيويته) ولعدة قرون[1]...

فهل تكفي هذه العوامل (السلبية) لعجز المجتمع عن العلاج؟ ابن خلدون لا يكتفي بذلك، بل يضع (قواعد) تترجم رأيه.

- قوانين ابن خلدون الكبرى:

حاول (الباحث) أن يستقرئ تصور ابن خلدون لقوانين كبرى يمكن أن تكون أداة (للنهوض والتقدم) فيما يسميه (علم العمران)، وهو شغله الشاغل في مقدمته لكتابه (ديوان المبتدأ والخبر...)، وقام (الباحث) بطرحها وفق المنطق والترتيب التالي[2]:

---

(١) محمد عمر شبرا، الأمة وأزمة الثقافة، ٣٩٣/١.

(٢) محمد عمر شبرا، الأمة وأزمة الثقافة، ٣٩٥/١.

١- قوة الملك لن تتحقق إلا بتطبيق الشريعة.

٢- لا يمكن تطبيق الشريعة إلا من قبل الحاكم.

٣- الحاكم لن ينال القوة إلا من خلال الشعب.

٤- الثروة (المال) ضرورية لمساندة الشعب.

٥- الثروة لا تكتسب إلا من خلال (العمارة) أي التنمية.

٦- العمران يتطلب (العدل) ولن يتحقق دون توفر العدل.

٧- العدل هو (الميزان)، الذي يقوم به الله البشر.

٨- إن مسؤولية تحقيق العدل تقع على عاتق الحاكم...

يرى ابن خلدون أن هذه القواعد يدعم بعضها بعضاً، وترتبط بعضها بشكل (دائري) وبدائرة مغلقة، وقد جعل لها رموزاً، فالسلطة (س)، والشريعة (ش)، والشعب (ن)، والثروة (م)، والعدل (ل)، ثم حاول شرح نوع الارتباط بينها...

- الخصوصية التاريخية:

في العالم خصوصيات: تاريخية، ثقافية... إلخ، فلكل خصوصيته، (هنري لوفيفر) له كتاب جيد عنوانه: (نهاية التاريخ)، قامت د. فاطمة الجيوشي بترجمته للعربية، ونشر عام ٢٠٠٢م، وأشم من المؤلف رائحة (يسارية) وهو يتحدث عن إدراك المؤرخ لخصوصية التاريخ، وهذه الخصوصيات لها قيمة (إيجابية) ينظر إليها عادة باستحسان، بل يبحث عنها ويعرضها، ويعمل أحياناً على شرحها، ويعتقد أنها (تاريخية) بماهيتها وبوصفها موضوعات

لمعرفته، وعلى العكس يدرك الاقتصادي والمخطط والناظر للمستقبل، وكذلك صاحب الاستراتيجية، هؤلاء يرون في الخصوصيات (سلبية)[1]....

الناس يختلفون ويتمايزون، وليسوا صورة (طبق الأصل) وكذلك الشعوب والأمم، هكذا خلقهم الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، البعض يعترف (بالخصوصية) في بلده، لكنه ينكرها ويتجاهلها عندما تكون له مصلحة في ذلك، ففي الولايات المتحدة الأمريكية كل شعب يحتفظ بثقافته (وكنيسته أو كنيسة) مع (لوبيه) الخاص به، وفي بلادنا العربية والإسلامية مطلوب إنكار وتجاهل أية خصوصية، (الوكلاء) يريدون أن نكون (نسخة طبق الأصل) للثقافة الأمريكية والقيم الأمريكية، بل مطلوب للعالم على سعته أن يكون (سوبر ماركت أمريكي) ومن يشاكس أو يعاكس أو يتذمر فهو معاد للتقدم وظلامي وعدواني ولا يستحق الحياة...

تاريخياً، لكل فترة خصوصيتها، وكل مرحلة من تطور شعب أو أمة له خصوصيته، وهل سيطبق هذا (التطبيع القسري) على إسرائيل مثلاً؟ وهي الدولة، التي تعلن يومياً كونها (يهودية)؟! إن إنكار الخصوصية الثقافية يلزم منه عدم وجود (اختلاف) بين البشر، ثقافياً أو اجتماعياً أو تاريخياً، فإذا كان الأمر كذلك فيمكن عندئذ سوق الكل (بالعصا) مع رفع شعار (العصى لمن شاكس وعصى)!!

---

(١) نهاية التاريخ، ص ١٧٥.

- الحداثة والتاريخ والأزهار المسمومة:

التاريخ - كما أتصوره - هو نهر الحياة المتدفق، يكون يوماً عذباً رقراقاً، ومرة خليطاً بالطين والطمي، وما يحمله الماء من الغثاء.

أما (الحداثة)، (فبدلة عرس)، تلبس مرة ثم تطوى، أما التاريخ فأعظم من ذلك وأكبر.. (هنري لوفيفر) يدرس علاقة الحداثة بالتاريخ، ولكن بأسلوب (أدبي متأنق)، فالحداثة - عنده - من البلاغة - وهي باقة من (الأيديولوجيات) وأزهار (سامة ذابلة وهمية)، لكنها معطرة (بشكل صناعي).. ويزيد (هنري): «لن تزعم الحداثة تصفية التاريخ، فهذا زعم متطرف مزيف، بقدر زيف إرجاع المعرفة للمعلومات، الحداثة تتلألأ على الركود، تقنع الشيء ذاته، الذي لم يتغير تحت مظاهر (فظة) أحياناً، وبارعة أحياناً، تقنع بالجدة، وضد التحليل النقدي... فالحداثة والحياة اليومية (عاهرتان) متواطئتان، تعملان معاً، تغشان معاً، تخدعان معاً، وتعيدان الخداع، ولكن رابطتهما لا تلغي التاريخية، بل تشير إلى انهيارها، وربما لتوقفها».[1]

تعبير متأنق، ولغة أدبية، هل هي من (هنري) أم ممن ترجم، لا أدري!! الحداثة بلاغة، أي كلام عذب، لكنه أشبه بورد صناعي، أو أزهار سامة ذابلة - فاقدة للحياة- وهمية غير حقيقية، لكنها معطرة.

---

(١) هنري لوفيفر، نهاية التاريخ، طبعة أولى، ص ١٧٦.

والشيء الذي عزّ علي فهمه قول (هنري): إن الحداثة والحياة اليومية (عاهرتان) تعملان معاً، وتغشان معاً وتخدعان معاً.... إلخ!!

هذا عز عليّ فهمه، وأخشى أن تكون الترجمة غير موفقة.

الحداثيون في الغرب أنجزوا أموراً، أما عندنا فماذا أنجزوا؟ يكتب أحدهم مقالة، أو يترجم مقالة، يلقي محاضرة أو يتحدث أمام مؤتمر في واشنطن أو لندن، ثم يحسب أنه جاء (بالأسد يجره من ذيله)، إنهم كمن ينكّت في مأتم، أو يبكي في عرس، أجسامهم معنا وقلوبهم وعقولهم في أماكن بعيدة، شاخوا وأفلسوا، لذا كانت صناديق الاقتراع الحكم الفصل، ففشلوا في كل مكان.. واللهم لا شماتة..

البعض (ينق) كالضفادع، فهل أجدى نقيقها شيئاً؟

- النقل الحضاري قد يقود للفشل والتمرد:

أسارع للقول: إن المستشرق الفرنسي المعروف (جاك بيرك) يتساءل: هل النموذج الغربي (حتمي) وضروري لكافة الشعوب؟ ويرد: ليس بضروري ولا حتمي، بل قد يؤدي – في أحيان كثيرة- إلى أنواع من الفشل والقلق والتمرد[1].

ما رأي (الوكلاء) فيما يقوله (جاك بيرك)؟

---

(١) نحن والصديق اللدود، للكاتب، الطبعة الأولى، ص ٩٨.

- استهلاك منتجات الحضارة:

العالم اليوم وبفضل المواصلات، أمكن نقل المنتجات من أقصى الأرض إلى أقصاها، ولأن الغرب ينتج ما يحتاج وما لا يحتاج، لذا صار من المعتاد وصول هذه المنتجات لكل أقطار الأرض، لكن استهلاك ما تنتجه حضارة الغرب لا يعني (التحضر) فالزبون، الذي يستعمل الكثير من هـذه المنتجات قد لا يعرف أهلها وصانعها..

(مالك بن نبي) يرحمه الله، يقول في هذا الصدد: «لكل حضارة منتجاتها المتولدة عنها، لكن لا يمكن صنع (حضارة) بمجرد تبني منتجاتها، فشراء ما تنتجه حضارة الغرب، ومن قبل كافة دول العالم، لم يجعلها تكسب حضارة أو قيماً حضارية، فالحضارة ليس تكديس منتجات، بل هي فكر ومُثل وقيم، لا بد من كسبها أو إنتاجها».[1]

- ما كسبناه من الغرب:

د. رشدي فكار، المفكر العربي المعروف، المرشح لجائزة (نوبل) والذي عاش في الغرب ودرَّس وحاضر، يقول: «لقد غصَّت ساحتنا المعاصرة (ببقايا موائد الغرب) بشقيه – الليبرالي والماركسي– لإنقاذنا (بالفُتات) وافتعال الإشكالات، مع ترك (جوهر) ما حققه الغرب من تقدم علمي مكثف، استأنسه تطبيقاً في تقنية التصنيع والعمران، ومنهجاً في تنوع المعرفة وتخصصها.. لقد (افتتنا) بهذا الفُتات، لنضيف إلى همومنا (المزمنة) هموماً (دخيلة) ثم هموم حلول ما افتعلناه، فأصبح لدينا إشكاليات أساسية

---

(١) شروط النهضة، ص ٤٢.

نابعة من واقعنا -بفقره وجهله ومرضه- وإشكاليات مفتعلة دخيلة (تتلهى) بها..... تعلقنا بالهوامش والفروع، وتركنا الجذور والأصول، حتى غرقنا في مشاكل (حلول المشاكل) لتتعدد لدينا الحلول، وليصبح (الحل هو غيبة الحل)، وتوالت الهزائم على الإنسان العربي، من داخل ذاته، قبل أن تتسع وتتشعب وتتداخل مع هزائم الآخرين له ولأمته، وهكذا دخلنا (عصر العتمة)».[1]

فمتى يأذن الله لنا بالخروج؟؟

(د. خلدون النقيب) شخصية علمية أكاديمية حداثية ليبرالية، لذا فإن شهادته يصعب الطعن فيها، فهو يقول: «لقد أعطتنا الرأسمالية الغربية -إضافة للعلم والتكنولوجيا- أعطتنا (العنف المسلح الشمولي والاستبداد البيروقراطي) للدولة الحديثة، والعنصرية السوفياتية (المؤدلجة) — أي التعصب القومي- هذه كلها ابتكارات (ندين) بها لحضارة الغرب الرأسمالي، كما تبلورت خلال ثلاثين سنة، من حرب ساخنة (١٩١٤-١٩٤٥) وحوالي (٤٥) سنة من حرب باردة (١٩٤٥-١٩٩٠م)، وكان لا بد أن تترك هذه (الابتكارات) آثاراً تراكمية في الوعي الجمعي، في البيئة العربية المتخلفة، وفي عدم انتظام المجال النفسي للسكان، وبخاصة في انحسار العقلانية في التفكير، والغرق في (مستنقع) التسلط والإرهاب، المنظم»[2].

إنها مكاسب (عظيمة) مثل مكاسب تجارة الأسهم اليوم!!

---

(١) نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع، ص٢٥.

(٢) في البدء كان الصراع، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص٣٩٣.

- مكاسب جديدة أيضاً:

د. برهان غليون يتحدث عن المكاسب، فيرى أن (العقلانية العربية) ابتدأت مسيرتها كحليف لجهتين: الطبقة العليا والغرب المستعمِر، وهي تريد أن تقلد الغرب في نمط حياته، ولتزيد من معدل (الاستغلال) لصالحها، متحالفة مع (السيد المستعمر)، بينما (انكفأت) الأغلبية الشعبية نحو (قيمها التقليدية)، ولتزيد من تلاحمها وتضامنها، والتمسك بقيمها، ولتقف ضد (التفكيك) لوحدتها الوطنية والشعبية...

وهكذا تحولت (العقلانية العربية) إلى (خواجا) وسمسار للغرب وقيمه وأخلاقياته والتي يقوم أساسها على (كسر المحرمات) كافة، والاستخفاف بها كلها[1]...

تهم كبيرة يسجلها شخصيتان أكاديميتان يصعب الطعن بشهادتهما.

- واقعنا المر:

واقعنا مر مرارة الحنظل، فشل يتبعه فشل، وهزيمة يعقبها هزيمة، حتى شبعنا هزائم، ووسائل إعلامنا تتحدث عن انتصارات، وإنجازات عظيمة... ورحنا نتلاعب بالمصطلحات فنسمي أكبر هزيمة بـ(النكسة).

إن الكثير من بلادنا (مخترقة)، وكما يقول د. خلدون النقيب: «لقد أسلمنا قيادة عالمنا العربي للغرب، فعلاقة عالمنا بالغرب ليست بريئة، إذ للغرب مصالح في عالمنا أبعد من حاجته (للنفط) تتصل بعلاقات التخلف والتبعية والتنافس الحضاري التاريخي، وخاصة التخوف من (القدرة الكامنة للعرب)

---

(١) اغتيال العقل، ص٢٥٤.

على التحول إلى (قوة إقليمية) تخل بميزان القوى في الحيز (الجيوسياسي) للعالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، وذلك على المدى البعيد».[1]

وأسارع للقول: هذا ليس رفعاً للرايات السود أو البيض، وأزيد: إنه واقع بعضه من صنعنا، وجله مفروض علينا من (المعلم الغربي) فنحن ومنذ قرابة قرنين (نجري) حتى حفيت منا (الأقدام) لكنا كما يبدو نركض خلف سراب...!!!

إن هذا الحديث سيزعج (الوكلاء)، وأود أن (أهمس) بمثل باكستاني يقول: المرأة حين يموت زوجها تريد أن تعيش (بشرف) لكن جيرانها لا يسمحون لها بذلك.. ومن لا يصدق هذا فلينظر: ماذا جرى ويجري لأهلنا في العراق وفلسطين والصومال؟

وأتمنى أن اطلع على إجابة وافية شافية: ماذا استفدنا من الغرب، وماذا يمكن أن نستفيد؟ فهل من مجيب؟

- في الختام:

في البحث أحلام وآمال وتطلعات، ونقد، ربما كان قاسياً، ومعلوم أن من يأكل (العصي) ليس كمن يعدها، وقد جمع البحث (نصوصاً) تستحق المناقشة والفرز.. والأمل أن نجد الباحث الشجاع، الذي لا يجامل ولا يعاند ولا يتلاعب، فالكلمة (أمانة) والأمانة غالية.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) في البدء كان الصراع، ص٣٩٣.

الفهرس

وكلاء التوزيع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٤٦٢٢١٨٢ ٤٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٤٣٦٨٠٠–بجوار سوق الجبر
البحرين	مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٢ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويت	مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبة علوم القرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
اليمن	مجموعة الجيل الجديد	٧١٣٦٣–٧٨٠٤٠ ٧٥٨١١– ٢٧٠٣٨	ص.ب: ٥٤٤– صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦– الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مصر	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦– الرباط
الجزائر	دار الوعي للنشر والتوزيع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠٤٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة –الجزائر
إنكلترا	دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House. 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة – الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس		دينار واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً

* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

الوقفية العالمية المحكَّمة

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح لعامها الثالث عشر موضوع:

المواطنة وفقه الانتماء

آخر موعد لاستلام البحوث كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧م

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري



برعاية الإدارة العامة للأوقاف

• المحاور:

- **مدخل:** تحديد المفاهيم: الوطن؛ المواطنة، الوطنية؛ الانتماء؛ الولاء؛ البراء؛ القومية؛ القُطرية؛ الأمة؛ الدولة؛ المجتمع؛ الشعب؛ العقد الاجتماعي؛ الحق المدني ● السياق التاريخي للمفهوم.
- **قيم الهوية:** تأسيس وترسيخ قيم الهوية الوطنية: القرآن الكريم، السنة النبوية؛ السيرة؛ حياة الصحابة؛ التراث الإسلامي ● بين مفهوم المواطنة ومفهوم الأمة والإنسانية ● التعدد والتنوع سنة كونية وحقيقة شرعية وضرورة عمرانية وواقع تاريخي.
- **المواطنة وتعزيز قيم الانتماء:** دور الدين في بناء المشترك وتعضيد مواثيق المواطنة ● مقومات التعايش السلمي بين المختلفين في العقيدة والجنس.
- **المواطنة ودوائر الانتماء:** بين الانتماء للوطن والولاء للعقيدة ● إشكالية الانتماء بين الأمة والدولة ● المواطنة في غير بلاد المسلمين ● المواطنة والتحديات الراهنة: العولمة ● التحالفات الدولية والقرارات الأممية، ....
- **أسس المواطنة:** العدل، الأمن، المساواة، تكافؤ الفرص، المشاركة الكاملة، استحقاق المنافع الطبيعية ● بين المواطنة والاندماج ● الحقوق الإنسانية: الدينية، المدنية، السياسية، الاجتماعية، الاقتصادية....
- **رؤية مستقبلية:** الفكر المقاصدي وأحكام الشريعة: مقاربة لمواطنة فاعلة ● أثر الانتماء الوطني في تحقيق الأمن والتنمية وبناء السلم المجتمعي ● وسائل استدعاء البعد الغائب في دعم وترسيخ قيم الهوية والانتماء ● نحو بناء ميثاق وطني جديد: مقاربة تراثية (حلف الفضول، وثيقة المدينة...).

• شروط الجائزة:

١- أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢- أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥- لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦- تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧- يجوز اشتراك باحثَيْن أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩- لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١- على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته الذاتية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٤٤٧٣٠٠(٩٧٤+)- فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: m_dirasat@islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net